ابنُ دُرَيْدٍ الأزْدى... شاعرًا

د. الطاهر أحمد مكى

شغلت حياة ابن دريد قرابة قرن كامل من الزمان، يجيء قمة بين عصور العربية الزاهرة، أدبًا وثقافة، واضطرابًا وعنفًا سياسيًّا، وشهد طلائع الوهن الذى أصاب الدولة، حين اجترأ الناس على الخلافة، وبعدت الشقة بين العناصر المختلفة، وأخذت الموالى تكيد للعرب علانية أحيانًا، وسرًّا وفى دهاء أغلب الأحيان، وجاء الوهن من اعتماد الدولة على غير العرب، وحين استجاب أبناء الجوارى من الحكام لعواطفهم، فمال المأمون إلى الفرس لأن أمه فارسية، وأكثر المعتصم من الترك لأن أمه تركية، وكون منهم جيشًا منتظمًا، وأكثر منهم حتى سيطروا على أجهزة الدولة، وأشاعوا الفوضى فى بغداد، واضطر أن يبنى مدينة سامراء، عام ٢٢١ هـ - ٨٣٦م، ويتخذها حاضرة خلافته، وينقلهم إليها وشدد الرقابة عليهم، ومنعهم من الاختلاط بالناس، واشترى لهم جوارى تركيات، وزوجهم منهن. وأجرى لهم رواتب خاصة، ولم يجد ذلك كله شيئًا، فاضطر أخيرًا أن يرحل إلى دمشق، ثم قتل على أيديهم هناك، وكان أول خليفة يقتل على يد الأتراك[١].

وقد أدى هذا الضعف إلى تفكك الدولة فقامت ثورة بابك الخرمى، وثورة الزنج، وثورة القرامطة، نجح بعضها، وأخفق البعض الآخر، ولكنها عملت جميعها على تمزيق هيبة الخلافة، ووحدة الدولة، وإذا كان بعض هذه الثورات قد مس ابن دريد من بعيد بوصفه مواطنًا عربيًّا غير عادى، إلا أن ثورة الزنج قد مسته من قريب جدًّا، ولفحته بحر نارها، وقريب منها كانت ثورة القرامطة، والاختلاف حول هاتين الثورتين واسع جدًّا، والنظرة المحايدة، لتأخذ مكانها الصحيح من حركة التاريخ العربى، سلبًا وإيجابًا، فلم تكونا شرًّا خالصًا، وإنما كان فيهما خير كثير[٢].

---

(١) ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية، ص٢١٢، دار المعارف، مصر ١٩٢٣، والطبرى ٣٨١/٧، واليعقوبى، تاريخ البلدان ٢٣، والفخرى، الآداب السلطانية ص ٢٢٠.

(٢) انظر: الطبرى ٥٤٣/٧، وبروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢١٥، ٢٢٨، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٦٥.

وأدى اتساع الدولة إلى تعدد العناصر التى تتألف منها، وبدأت المقومات القبلية تذوب فى المدن الكبرى، وتحل مكانها صلات أخرى تقوم على العلم والذكاء، والكفاءة الفردية والموهبة، أو الثروة والجاه، وراجت التجارة، وكثر المال فى أيدى الناس، ومضى المجتمع الغنى مع الترف إلى آخر مدى، فى بناء القصور، وابتكار الأزياء، وتنوع الطعام، وكثرة الرقيق، وتعدد مجالس الغناء والشراب، وشيوع سباق الخيل، واستخدام الحمام الزاجل ولعبة الصولجان، والشطرنج والنرد وغيرها.

ولم يكن يعدل ترف الطبقة العليا، وإقبالها على الحياة واللذات، غير بؤس الطبقة الدنيا وفقرها المدقع وحرمانها من كل الطيبات[1].

وفى الجانب المقابل لكل ما سبق كانت هناك حياة علمية ناهضة، أصيلة تصدر عن العرب أنفسهم، وتستلهم تاريخهم وتراثهم، أو وافدة تنساب عليهم من أنحاء مختلفة، من الفرس والهنود واليونان والسريان عن طريق الترجمة، والناس فى هذا يذكرون المأمون وفضله، وينسون المتوكل ودوره، ولم تكن كل الأفكار التى جاءت بها الترجمة مما يرضى عنه العرب والمسلمون، فكان عليهم أن يدفعوها بالفكرة، وواجهوا تحديًا حضاريًا عقليا، كان عليهم أن يثبتوا قدرتهم على فهمه ومواجهته، وقام المعتزلة بالجهد الأكبر فى هذا الجانب، ولم يقف العرب عند الدفاع وإنما تجاوزوه إلى الابتداع، فابتكر الخليل بن أحمد الفراهيدى علم العروض، والخوارزمى علم الجبر، وترجموا غيرهم وشرحوه أو علقوا عليه، فترجم الحجاج بن يوسف بن مطر مصنفات أقليدس، وكتاب بطليموس الشهير عند العرب بالمجسطى للخليفة المأمون، واقتبس الخوارزمى كتاب بطليموس فى صورة الأرض، وترجم حنين بن إسحاق كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتب أخرى[2].

وبدأ الراغبون فى شتى جوانب المعرفة الإنسانية، نظرية وعملية، يقرءون ويهضمون ويتمثلون، ويفرزون أفكارًا متقدمة، فى الأدب واللغة والمنطق والفلسفة والفقه وعلم التوحيد والتاريخ والطب والكيمياء.

إنه عصر أقطاب الفقه: مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل والنوبختى، وأئمة الحديث

---

(١) قدم المستشرق السويسرى آدم متز فى كتابه عصر النهضة فى الإسلام، وترجمه الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»، صورة دقيقة ومفصلة لجوانب الحياة الاجتماعية المختلفة فى العالم الإسلامى فى ذلك القرن، وجاءت ترجمته فى جزأين، وصدرت طبعته الأولى فى القاهرة عام ١٣٦٦ - ١٩٤٧، ثم توالت إعادة طبعه بعد ذلك.

(٢) فيليب خورى حتى، تاريخ العرب، ترجمة محمد مبروك نافع، ص ٣٨٧ - ٣٩٠، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٩.

الكبار، مسلم بن الحجاج، وأبـو داود والترمـذى والنسائى وابن مـاجة، وأعـلام التصوف: أبو يزيد البسطامى، وأبو سعيد الخراز، وأبو بكر الشبلى، وغيرهم كثير[١].

وكان وراء هذا الازدهار عوامل عدة: هنـاك الخليفة ووزراؤه وعمـاله، يقـربون العلماء ويشجعون الأدباء، ويسخون على المفكرين بلا حساب، فأصبح العلم سند من لا سند له، ودعامة من جاء إلى الحياة مجردًا من عصبية القبيلة أو سطوة المال.

وأذكت المنافسة بين العناصر المختلفة روح البحث والتسابق، ففير العرب يقتحمون مجال العلوم العربية ليثبتوا كفاءتهم، والعرب يشمرون عن ساعد الجد فى العلوم الوافدة وفى تراثهم ليبرهنوا على أنهم ليسوا دون غيرهم، وعاد ذلك كله بخير عميم على الحضارة العربية، لا زلنا نرتوى منه، ونقطف ثمار غرسه حتى يومنا هذا.

وأصاب الأدب نفسه تطور عظيم، نثرًا وشعرًا، فلم يعد النثر بدائيًا لا يتجـاوز الخطبـة والوصية والرسالة، وإنما تجاوزها إلى القصة والمناظرة، ثم أصبح فنا تؤدى فيه العلوم الشائعة على كثرتها وتنوعها، وألوان من القول كان يختص بها الشعر من قبل، من مدح وهجاء، ووصف ورثاء، وفخر، وتحريض واعتذار، وتأليف وترجمة وغيرها[٢].

وسوف يعرض الشعر لألوان جديدة من القول لم تكن معهودة من قبل، فأبـو يعقوب الخريمى، وعمرو بن عبد الملك الوراق يبكيان بغداد حين حاصرها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون أثناء الفتنة التى وقعت بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ - ٨١٢م، ولاقت خلاله بلاء شديدًا يعجز عنه الوصف، فدك الجيش أحيـاء برمتهـا، «وكثر الخـراب والهدم حتى درست محاسنها»[٣].وابن الرومى يرثى مدينة البصرة حين اقتحمها الزنج، وقتلوا دون رحمة كل من وقع فى أيديهم من الأسرى وغير المحاربين، ودمروا المدينة عن آخرها، وصور فجائعها وما تعرضت له من بلاء ومحن[٤]. وشاع الغزل بالمذكر، وتطور شعر الخمريات تبعًا لتطور الحضارة، فوصف

---

(١) درس أحمد أمين هذا العصر دراسة رائعة مستوعبة فى كتابه ضحى الإسلام، فى ثلاثة مجلدات، وصدرت طبعته الأولى فى القاهرة عام ١٩٣٣ - ١٩٣٦.

(٢) تناول طه حسين هذه القضية فى كتابه «من حديث الشعر والنثر»، وهو جملة محاضرات ألقاها فى أمكنة مختلفة عامى ١٩٣٠، ١٩٣١، ونشرت فى القاهرة عام ١٩٣٩، غير أن الكثير مما قاله يحتاج إلى إعادة نظر فى ضوء ما نشر من نصوص جديدة.

(٣) انظر: تاريخ الطبرى ٤٤/٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦. والحيوان للجاحظ، ٢٢٥/١، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مكتبة الحلبى، القاهرة، ودراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، للدكتور الطاهر أحمد مكى، ص ٢٠١ - ٢٠٢، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.

(٤) دراسات أندلسية، ص٢٠٣.

مجالس الشراب وروادها وآنيتها، وبدأ شعر المجون يأخذ وضعًا فاضحًا، ونلتقى بشعر الزهد رد فعل ومواجهة لكل ما سبق.

ذلك هو العصر الذى عاش فيه شاعرنا أبو بكر بن دريد، ولم يكن شاعرًا فحسب، وإنما كان لغويًا ونسابة، ودنيا عريضة من العلم والرواية.

* * *

أبو بكر، محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن الحسن[١] بن حمامى[٢]، وتمضى السلسلة حتى تبلغ نصر بن الأزد جد القبيلة الأعلى، وتتوالى حتى تصل قحطان نفسه، ولا أظننى بحاجة إلى إيرادها كاملة هنا، فما من جديد يمكن أن تضيفه لبحثنا هذا، وبحسب من يريدها أن يعود إلى المصادر التى ترجمت لابن دريد[٣].

ويُوصف ابن دريد بالأزدى نسبة إلى قبيلته، والعمانى نسبة إلى موطنها، والبصرى نسبة إلى مولده، واللغوى نسبة إلى ما غلب عليه من علمه، وحمامى نسبة إلى قرية حماما من نواحى عمان، ويروى ابن دريد نفسه أن حمامى هذا أول من أسلم من آبائه، وكان من السبعين راكبًا الذين خرجوا مع عمرو بن العاص من عمان إلى المدينة لما بلغهم وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام[٤].

ويرى غالب بن على إمام عمان أن ابن دريد حديدى، وبنو حديد قومه لا يزالون فى دما التى تعرف اليوم بالسيب من الباطنة، وبعضهم بوادى العين من أودية بنى هناءة من الأزد، وبطون الأزد كبنى حديد واليحمد والعنيد وخروص وغيرهم منتشرون فى عمان، ونبغ منهم الأئمة والقضاة والرؤساء[٥].

---

(١) فى بعض المصادر ابن حسين، انظر: ابن هشام اللخمى، الفوائد المحصورة فى شرح المقصورة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ص ١٠٤، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م.

(٢) فى بعض المصادر بن حام، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصادر الأساسية لدراسة ابن دريد هى: مؤلفاته نفسها، ومقدمات محققيها، ومروج الذهب للمسعودى الجزء الثانى، ومعجم الشعراء للمرزبانى، ومراتب النحويين للغوى أبى الطيب، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى، والفهرست للنديم، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى، الجزء الثانى، ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن االانبارى، وارشاد الأريب لمعرفة الأديب لياقوت، وانباه الرواة على أنباء النحاة للقفطى، الجزء الثالث، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطى، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى، وطبقات الشافعية للسبكى الجزء الثالث.

(٤) الاشتقاق، ص ٢٢١.

(٥) مقدمة وصف المطر وما نعته العرب الرواد من البقاع لابن دريد، تحقيق عز الدين التنوخى، دمشق ١٩٦٣ م، ص ١١.

ومهما يكن من أمر فابن دريد أزدى، وكثير من المصادر يدعوه العمانى[1]، وبهؤلاء الأزد يفخر السيد الحميرى.

والأزد أزد عمان الأكرمون إذا ... عدت مآثرهم فى سالف الزمن
بسانت كريمتهم عنى فدارهم دارى ... وفى الحسب من أوطانهم وطنى[2]

وكان أهله من رؤساء عمان وذوى اليسار فيهم، وأقرب الظن أنهم كانوا يشتغلون بالتجارة، ثم وفدوا على البصرة فيمن وفد من قبائل الأزد، وقد أصبحت هذه منذ أن اختطت مدينة فى الإسلام على صلة قوية بكل القبائل التى تتناثر على الجانب العربى حتى مسقط جنوبًا وأحيانًا كان يطلق على المنطقة كلها اسم البحرين أو هجر، وتعيش على التجارة تعاملاً أو نقلاً أو حراسة، فيما بين شرق أفريقيا والهند والصين وأندونيسيا وبين البصرة.

نزل الأزد فى أطراف مدينة البصرة، فى الجزء الجنوبى الغربى منها، قرب وادى العقيق، وظلوا يترددون دائمًا بينها وبين عمان، حسب ما تقتضيه دواعى العمل وظروف العيش، لم ينقطعوا عن موطنهم الأول، ولا عن عشيرتهم الأقربين، تجارة أو تزاورًا، وربما كان هذا الترحال المستمر وراء قول تلميذه المزربانى فى معجم الشعراء، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد، والسمعانى فى الأنساب، إنه نشأ فى عمان[3].

كان دريد جد أبى بكر صاحبنا، أول من نزح مع أسرته إلى الشمال خلال القرن الثانى للهجرة، واستقر بالبصرة شأن بنى عمومته، ولا نملك تفصيلات وافية عن حياة الجد فيها، وأحسبه أصاب شيئا من فيض المدينة الثقافى، فقد كانت طوال القرنين الثانى والثالث الهجريين تموج بنشاط علمى عظيم، وكانت مساجدها تزدحم بحلق الدرس فى كل فروع المعرفة من الحديث والتفسير والمناظرات وعلم الكلام، إلى اللغة والنحو والقصص والأشعار، ونعرف أكيدًا أنه أنجب ابنين هما: الحسن والحسين، وأن شاعرنا ابن الأول منهما، وأن الثانى قد تكفل بتربيته وتأديبه، فقد كان على شىء من العلم، «يروى عن ابن الكلبى وغيره، وسمع من السكن بن سعيد، ومن العكلى، ومن ابن معاذ، ومن الأثرم، وهؤلاء مشاهير من روى عنهم»[4].

ولد ابن دريد فى البصرة، فى سكة صالح، عام ٢٢٣ هـ - ٨٣٧م، فى خلافة المعتصم، وهو ما تلتقى عنده كل المصادر تقريبًا، ولكن إبراهيم أطفيش الجزائرى، فى مقدمته لكتاب الملاحن،

---

(١) المسعودى، مروج الذهب ٢/٥٠٨، طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ.
(٢) الديوان ١٨٤.
(٣) معجم الشعراء ٤٦١، وتاريخ بغداد ٢/١٩٥، والأنساب ٢٢٦.
(٤) الفوائد المحصورة فى شرح المقصورة ص ١٠٥، وبالهامش تعريف بكل هؤلاء الأعلام، وإحالة إلى مصادرهم.

يقول: «ولكن العتبى يقول عن العتكى: دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعته يقول: ولدت ليلة الجمعة فى أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين»[1] ولم يذكر المحقق المصدر الذى نقل عنه هذه الرواية، فلعل راويها سها، أو لم يرهف السمع، وأيا ما كان الأمر فهو خبر فرد فى مواجهة رواية متواترة.

ويبدو أن والد أبى بكر توفى عنه صغيرًا، ولم يكن له فى حياته أثر، فهو لا يروى عنه شيئًا، ولم يرثه فيما وصلنا من شعره، على حين وصلتنا قصيدة له فى رثاء عمه الحسين، وكان هو الذى قام على تربيته، وتكفل بتشجيعه، وعهد بتأديبه إلى ابن عثمان الأشناندانى[2]. المتوفى عام ٢٨٨ هـ - ٩٠١م، فلقنه اللغة وأشعارها، ونعرف من خبر لابن دريد نفسه أنه كان يقرئه الشعر، وأنه حفظ على يديه ديوان الحارث بن حلزة، وفيما بعد سوف يروى التلميذ أبو بكر عن أستاذه ابن عثمان كتابه «معانى الشعر».

وما لبث أن اختلف أبو بكر إلى مساجد البصرة، يتابع فيها حلق الدرس المختلفة، العامرة بكبار العلماء، شأن أترابه فى ذلك العصر، يفاتش كغيره فى مختلف مسائل اللغة والشعر، ونعرف يقينًا أنه حضر مجالس أبى حاتم السجستانى، وتوفى فى حدود سنة ٢٥٠ هـ - ٨٦٤م، واستفاد منه معرفة بأسرار اللغة ودقائقها، ولزم دروس عبد الرحمن بن عبد الرحمن الشهير بابن أخى الأصمعى، المتوفى ٢٤٠ هـ - ٨٥٥م، فروى عنه العديد من كتب عمه وأخباره، ومن النوادر والشوارد والإلغاء التى لا تروى إلا عن أمثاله، وكان يتردد أيضًا على حلقة أبى الفضل الرياشى، المتوفى ٢٥٧ هـ - ٨٧١م، وكان من أعلام عصره فى النحو والاشتقاق، وروى عنه مسائل فى الغريب تفرد بها، ومكنته من قلوب مريديه من الطلاب سواء فى البصرة أو فى بغداد[3].

ولكن الأحداث اضطرته إلى أن يترك البصرة شابًّا مع عمه الحسين، حين استولى عليها الزنج عام ٢٥٧ هـ - ٨٧١م، وأعملوا السيف فى رقاب أهلها، وذهب ضحيتهم خلق كثير، بما فيهم أستاذه الرياشى، فقد قتلوه وهو يصلى الضحى فى مسجده، ويمم وجهه شطر عمان، وسكنها اثنتى عشرة سنة، شارك فيها قبيلته أمورها، وازدادت صلته ببلاد أجداده، وبرؤساء قومه، وبنى عمومته من الأزد، وأثرى عيشه فى هذه البوادى حصيلته من عربية الجنوب ولهجاتها، وتجلى ذلك واضحًا فى كتابه الجمهرة، فقد أعطى اللهجات اليمنية والأزدية ولهجة البحرين عناية خاصة، وترك ذلك صدى بينًا فى شعره، فنحن نلتقى فيه بقصائد ذات نغم بدوى

---

(١) الملاحن، تحقيق إبراهيم أطفيش، المقدمة صفحة ك، القاهرة ١٣٤٧ هـ.

(٢) نسبة إلى أشنان محلة فى بغداد.

(٣) الفوائد المحصورة ص ١٠٤ - ١٠٥.

عريق، مما يعرف لكبار الشعراء القبليين قبله، فهو يرثى قتلاهم من العتيك واليحمد فى وقعة الروضة بتنوف[1]، ويستثير حماسهم، ويدفعهم إلى الثأر.

ولما انقضت ثورة الزنج، واستتب الأمن فى البصرة وجنوب العراق، رجع إلى مدينته سنة ٢٧٠هـ - ٨٨٤م، وبقى فيها يباشر التدريس، ويعنى بشؤون عائلته المادية، فقد آلت إليه مسؤوليتها بعد وفاة عمه، وبدأ نجمه عاليًا يعلو، وتطبق شهرته أنحاء العراق.

ظل ابن دريد فى البصرة إلى أن استدعاه عبد الله بن محمد بن ميكال، ويدعى الشاه بعامة، ليقوم على تأديب ولده أبى العباس، ويمكن تحديد هذا التاريخ على وجه التقريب، فنحن نعرف أن ابن دريد صنف له كتاب الجمهرة عام ٢٩٧هـ - ٩١٠م، فلابد أن يكون ذهابة قبل هذا التاريخ، ونعرف أن المقتدر تولى الخلافة عام ٢٩٥هـ - ٩٠٨م، وهى السنة التى اختار فيها ابن ميكال عاملًا له على الأهواز، فلابد أن يكون استدعاء ابن دريد فى هذا العام، أو العام الذى تلاه، وهو ما يرجح عندى.

ولكن عز الدين التنوخى ينقل فى مقدمته لكتاب «وصف المطر والسحاب وما نعته العرب الرواد من البقاع» قصة حدثه بها الشيخ سليمان السالمى ممثل إمامة عمان فى دمشق لحظة تحقيق الكتاب، وكتب له بمثلها والده العلامة محمد السالمى، ابن علامة عمان ومؤرخها الشيخ نور الدين عبد الله السالمى، ويذكر أن القصة مدونة فى كتب العمانيين، ولكنه لم يشر إلى الكتاب أو الكتب التى وردت فيها، وموجزها:

«أن الأميرين الميكاليين خرجا ذات يوم بسفينتهما من البصرة للنزهة فى بحر الخليج العربى، فهبت عليهما رياح عواصف، وسحت ديم من الأمطار فلم يستطيعا أن يلوذا بالسواحل فلبثا فى السفينة على ظهر البحر العجاج أياما إلى أن بدت لهما مدينة صحار العمانية، وبعد أن نزلا إلى مرفئها دلها الأهلون على دار الضيافة الدريدية، فرحب بهما ابن دريد كل الترحيب، وأكرمهما إكرام العرب للضيفان وهو لا يعرفهما، ولم يعرفاه بنفسيهما، وكان الوقت شتاء، والمطر مستمرًا، فلم يجد حطبًا للوقود ليطبخ لهما الطعام، لأن الحطب كان ريانا بالماء، فكان يأخذ الأثواب من التجار ويغمسها فى الزيت ليوقد بها نار القرى».

«ولما رأى الضيفان ذلك قال الوالد لولده: هذا شىء لا يحتمله إنسان، ولا ينبغى للضيف أن يكون مملًا ومؤذيًا، فاستأذنا بالانصراف، وألحا على ابن دريد فى الرجاء حتى أذن لهما، فودعاه وكتبا له عنوان مقرهما، وكانا على الأهواز، فلما ضاقت به الحال، وأضاعته الأيام، وكان يأبى أن يتكسب ببلاغته وشعره، رأى أن يزورهما أخيرًا بعد نفاذ صبره، ليستعين بهما على صروف دهره،

---

(١) الروضة موضع قرب بلدة تنوف من جهة الغرب، بين نزوى عاصمة الإمامة والجبل الأخضر.

فرحل إليها، وحل على الأمير الميكالى ضيفًا، ولبث فى ضيافته نحو شهر، فأكرمه كما يكرم سائر الناس، ولم ير منه ما كان يرجوه من الإكرام والإحسان، ولكن الأمير الميكالى كان قد جهز لمنزله بصحار سفينتين شراعيتين، وكتب لأهله بلسان ابن دريد يأمرهم بأن يفتحوا دار الضيافة كعادتها، فامتثل أهلوه الأمر ودعا الضيوف والعفاة إلى قصدها فى غيبته، ولا علم لابن دريد بالأمر.

«وضاق صدر ابن دريد، واستأذن فى الرجوع، وفى نفسه أنهما لم يقوما ببعض ما يستحق ويأمل، وألح فى استئذانهما، فجهزاه بسفينة مملوءة بما يحتاج إليه، ولم يخبراه بما فعلا، وعهدا إلى ربان السفينة ألا يخبر ابن دريد بأن جهاز السفينة بأسره له، وسأل ربان السفينة أن ينزله ليلا كى لا يشمت أعداؤه فيه، فامتثل الربان، وطلب منه أن يعود من غد إلى السفينة.

«نزل ابن دريد ليلًا، ولم يرد أن يذهب إلى منزله مباشرة، ولجأ إلى بيت عجوز فاستضافها، وسألها أن تأذن له بالعشاء فى منزلها، فعجبت العجوز لذلك، وقالت له: أتترك بيت ابن دريد وتطلب من مثلى العشاء!.

«فسألها ومن أين لابن دريد أن يقبل ضيفًا، وقد أفقره الضيفان؟ فردت: إن ابن دريد بعد سفره كان يجيز لمنزله فى كل شهر سفينة مملوءة بالأرزاق، وإن دار ضيافته اليوم أوسع مما كانت عليه بالأمس. وعاد ابن دريد بما سمع من العجوز إلى منزله فوجد ما أدهشه، وفوق ما كان يرجو من الأميرين، وفى الصباح زاره ربان السفينة ليخبره بأن كل ما فيها من وسق وأرزاق لدار الضيافة».

وقد نقبل جوهر الرواية، ولكن الكثير من التفصيلات، أو جلها إذا شئت، هى أقرب إلى الخلق القصصى منها إلى الحقيقة الواقعة، لون من التوابل البلاغية تعود القصّاص أن يجملوا به ما يقولون.

قضى ابن دريد قرب الأميرين اثنتى عشرة سنة، عمل فيها مؤدبًا لأبى العباس الميكالى ابن الشاه، وكان يفقهه فى اللغة، وأملى عليه الجمهرة، وتقلد لها ديوان الإنشاء «فكان يصدر كتاب الديوان عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه، فأفاد أموالًا عظيمة»، ونظم فيها مقصورته فوصلاه، عليها بعشرة آلاف دينار[1]، ولكن سخاءه وكرمه ذهب بكل ما حصل عليه. وإلى جانب هذا أفاد علميًّا من البيئة الفارسية المحيطة به، وفى الجمهرة باب عنوانه «باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم»، وفيه كثير من الألفاظ الفارسية التى تعربت. وظل إلى جانب الأميرين الميكاليين إلى أن عزلا من منصبيهما، فانتقل معهما إلى خراسان، وأثناء ذلك

---

(١) الفوائد المحصورة ص ١٠٥ - ١٠٦. ومعجم الأدباء ١٣٧/١٨ والوفيات ٤٩٨/١.

توفى الأب، ورفض الابن العمالة، فعاد ابن دريد عام ٣٠١هـ - ٩١٣م إلى البصرة من جديد.[١].

فى البصرة أخذ يدرس فى جامعها كتابه الجمهرة، وبقية مؤلفاته الأخرى للطلاب، وبلغ زعامة المدرسة اللغوية فى المدينة، واعتبره المؤرخون خير مدافع عن مجدها العلمى، ولكنه لحظ ببصيرته النافذة أن البصرة اليوم غيرها بالأمس، لم تكن تلك التى فارقها منذ سنوات خلت، فقد جاء ازدهار بغداد على حسابها، وأخذت هذه تستقطب صفوة العلماء وخيرة الطلاب، وبينما تلك تتقدم وتنشط وتلمع كانت البصرة تجمد وتخبو وتنطفىء، فغادرها إلى بغداد عام ٣٠٨هـ - ٩٢٠م.

دخل ابن دريد بغداد وهو فى الخامسة والثمانين من عمره، وأنزله على بن محمد الخوارى فى جواره، وأفضل عليه إفضالاً عظيمًا، وعرف المقتدر خبره ومكانه من العلم فأمر أن يجرى عليه خمسون دينارا فى كل شهر»[٢]. ثم انتقل إلى بيت مستقل، حتى يتمكن من استقبال مريديه وتلاميذه فى مجالسه العلمية التى شهر بها، ونعرف من ابن خير الأندلسى أنه كان يدرس كتاب الجمهرة بمدبغة أبى عبيد الله بباب الطاق[٣] وتعد سنواته فى بغداد، من المراحل الخصبة فى حياته، رغم تقدم سنه، فقد حلت بغداد مكان البصرة، وأصبحت مقصد الراغبين فى المعرفة فى شتى أنحاء العالم العربى، فالتف حوله الطلاب والمريدون من أمثال أبى على القالى صاحب الأمالى، والمرزبانى وينعته فى معجمه «شيخنا»، والسيرافى النحوى، والأصفهانى صاحب كتاب الأغانى، والآمدى صاحب الموازنة بين الطائيين، والرمانى عالم البلاغة، وابن خالويه النحوى، وآخرون كثيرون، يحضرون حلقة درسه ومجالسه، ويروون كتبه وأحاديثه، وأخباره وأشعاره، بعضهم لازمه طوال أيام الطلب، وآخرون اختلفوا عليه زمنًا حين مرورهم ببغداد[٤].

ثمة جانب من حياة ابن دريد لما يزل غامضًا حتى يومنا، وهو حياته العائلية، ذلك أن المصادر التى ترجمت له أو تابعت رحلاته لا تتحدث عن أسرة له، ولا نعرف له ذرية، ابنًا أو بنتًا أو أصهارًا، فيما خلا نص غير واضح للقاضى أبى على الحسن بن القاسم التنوخى، المتوفى ٣٨٤هـ - ٩٩٤م، فى كتابه «الفرج بعد الشدة»، يرويه عن إبراهيم الخواص، يقول: «حدثنى

---

(١) المزهر للسيوطى ٩٤/١، وحاجى خليفة، كشف الظنون ص ٦٠٥.

(٢) الفوائد المحصورة ص ١٠٦.

(٣) فهرسة ابن خير، الطبعة الثانية، ص ٣٤٨، القاهرة ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣م.

(٤) أورد السيد مصطفى السنوسى فى مقدمته لتحقيق «تعليق من أمالى ابن دريد» قائمة وافية بتلاميذه، ص ٢٤ - ٣٠، وتبلغ عدتهم عنده أربعة وستين تلميذًا، ممن كان لهم دور فى الحياة الأدبية، الطبعة الأولى، الكويت ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م.

أبو بكر البسطامى صاحب ابن دريد، وكان زوج ابنته، وكان شيخًا من أهل الأدب والحديث، وقد استوطن الأهواز سنين...»[1].

وهو نص يفيد أكيدًا أن ابن دريد تزوج أو زوج، ولكنه غير واضح فيما وراء هذا، فلا نعرف على سبيل القطع أو الترجيح: هل تزوج البسطامى بنت ابن دريد، أم أن ابن دريد تزوج بنت البسطامى.

وهو على رأس التسعين من عمره، عرض له فالج فعولج منه، فبرىء وصح، ورجع إلى ما كان عليه من إسماع تلاميذه وإملائه عليهم، ثم عاوده الفالج بعد حول، وكان يحرك يده حركة ضعيفة، ويطل من محزمه إلى قدميه، وكان مع هذا الحال ثابت العقل والذهن، يرد فيما يسأل عنه ردًا صحيحًا بالطبع. ويقول تلميذه أبو على القالى: إنه عاش بهذا الحال عامين، وكنت أسأله عن شكوكى فى اللغة، وهو بهذه الحال فيرد بأسرع من النفس بالصواب[2].

وقد توفى يوم الأربعاء لثمانى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ودفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقى، فى ظهر سوق السلاح من الشارع الأعظم، ودفن معه فى اللحظة نفسها أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى المتكلم المعتزلى، فقال الناس: اليوم مات علما اللغة والكلام[3]!

* * *

كان ابن دريد عربى الخلق والشيم، ويصفه تلميذه المرزبانى بأنه «سمح الأخلاق» و «له نجدة فى شبابه وشجاعة وسخاء وسماحة»[4] ويزيد ابن خلكان: «كان مفيدًا مبيدًا لا يمسك درهما سخاء وكرما»[5] وكان حريصًا على كرامته، معتزًا بنفسه، كتب إلى أحمد بن محمد بن رستم، وكان مؤدبًا لولد ابن الفرات الوزير، ويسكن عنده بقصره على النهر فى بغداد، وقد حجب ابن دريد عن لقائه فيما يظن:

حجابك صعب يجبه الحر دونه ... وقلبى إذا سيم المذلة أصعب
وما أزعجتنى نحو بابك حاجة ... فأجشم نفسى رجعة حين أحجب[6]

وتلح المصادر جميعها على أنه كان يدمن الشراب، ويرى المستشرق الفرنسى إيوار Huart

(١) التنوخى، الفرج بعد الشدة ٢٨٩/١، القاهرة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م.
(٢) الفوائد المحصورة ١٠٦، والوفيات ٤٩٩/١.
(٣) أنباه الرواة ٩٥/٣.
(٤) معجم الشعراء ص ٤٢٥.
(٥) الوفيات ٤٩٨/١.
(٦) الديوان ص ٧٩، وطبعة العلوى ٣٨.

فى كتابه «الأدب العربى» أنه تعاقد مع الشراب خلال إقامته فى فارس، فكان ينتشى حتى الثمالة»[1]، دون أن يحيلنا على المصدر الذى اعتمد عليه، أو أن أجد له توثيقًا فيما قرأت. ويحكى أبو ذر الهروى: سمعت عمر بن شاهين الواعظ يقول: «كنا ندخل على ابن دريد، ونستحيى منه لما نرى من العيدان المعلقة، والشراب المصفى، وقد كان جاوز التسعين سنة[2]. ويروى أبو ذر نفسه، عن الأزهرى فى هذه المرة: «دخلت على ابن دريد فرأيته سكران فلم أعد إليه»[3].

ويأتى بعد الأزهرى وابن شاهين الواعظ من ينقل عنهما قولهما دون نقص أو زيادة، ودون تمحيص أيضًا، فيذكر ابن كثير أنه «كان متهتكا فى الشراب منهمكا فيه» واستدل بقول السابقين، وختم كلامه بقوله: «سامحه الله»[4].

وإذا كان اتهام الأزهرى يمكن رده لما كان بينهما من صراع علمى سوف نعرض له، فمن الصعب أن نصنع ذلك مع رواية عمر بن شاهين، وعلى أية حال لم يلق ابن دريد نفسه بالا لأى من هذه الاتهامات:

وما أحد من ألسن الناس سالمًا ... ولو أنه ذاك النبى المطهر
فإن كان مقدامًا يقولون أهوج ... وإن كان مفضالاً يقولون مبذر
وإن كان سكيتًا يقولون أبكم ... وإن كان منطيقًا يقولون مهذر
وإن كان صوامًا وبالليل قائمًا ... يقولون زراف يرائى ويمكر
فلا تحتفل بالناس فى الذم والثنا ... ولا تخش غير الله فالله أكبر[5]

الذين دفعوا التهمة عنه قالوا إنه كان على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، فهو يبيح شراب النبيذ بصفات حددها، وبشروط مطلوب من الشارب ألا يتجاوزها.

فإذا تجاوزنا الجانب الشخصى إلى حياته العلمية، تنبئنا المصادر أنه كان شغوفًا بالعلم، محبًّا للمطالعة، يرى فيها متنزهًا لقلبه، كما تكون مجالى الطبيعة متنزهًا لطرفه، روى أبو نصر الميكالى: «تذاكرنا المتنزهات يومًا وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق، وقال آخرون: بل نهر الآبلة، وقال آخرون: بل سغد سمرقند، وقال بعضهم: نهروان بغداد، وقال بعضهم: شعب بوان بأرض فارس، وقال بعضهم: نوبهار بلخ، فقال ط: هذه متنزهات

(١) Huart, Clement, la litterature Arabe, trad, espagnole, p. 149-151 Bueno Aires 1947.
(٢) ابن الانبارى، نزهة الألبا ص ٣٢٤.
(٣) ياقوت معجم الأدباء ١٣١/١٨.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٧٦/١١، طبعة القاهرة.
(٥) الديوان، ص ٢١، والعلوى ٦٨.

العيون، فأين أنتم من متنزهات القلوب؟ قلمخ: وما هى يا أبا بكر. قال: عيون الأخبار للقتبى، وازهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن طاهر:

ومن تك نزهته قينة وكأس تحث وكأس تصب
فنزهتنا واستراحتنا تلاقى العيون ودرس الكتب[1]

وكان إلى جانب شغفه بالعلم واهتمامه به، وإقباله عليه، سريع الحفظ واسع الرواية، قوى الذاكرة، تقرأ عليه دواوين العرب فيسابق إلى اتمامها وحفظها، وما قرىء عليه ديوان شاعر إلا سابق إلى روايته لحفظه.

يروى تلميذه أبو العباس الميكالى: «أملى على أبو بكر الدريدى كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظًا، سنة سبع وتسعين ومائتين، فما رأيته استعان عليه بالنظرة فى شىء من الكتب إلا فى باب الهمزة واللفيف، فإنه طالع بعض الكتب».

جمع ابن دريد بين العلم والإبداع، وبلغ الغاية فى كليهما، فى اللغة والشعر، ويراه المسعودى، المتوفى ٣٤٦ - ٩٥٧م، «قام مقام الخليل بن أحمد، وأورد أشياء فى اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين»[2]، ويزيد أبو الطيب اللغوى، المتوفى ٣٥١هـ - ٩٦٢م الأمر توضيحًا فى كتابه مراتب النحويين واللغويين فيقول:

«انتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظ الناس وأوسعهم علمًا، وأقدرهم على الشعر، وما أزدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحامهما فى صدر خلف الأحمر وابن دريد»[3]. ويضيف الزبيدى أندلسى، المتوفى ٣٧٩هـ - ٩٨٩م، إلى ذلك «أيام العرب، وله أوضاع جمة»[4]. ويقول عنه تلميذه المزربانى، المتوفى ٣٨٤هـ - ٩٩٤م، «كان رأس أهل العلم، والمتقدم فى الحفظ للغة والأنساب وأشعار العرب»[5].

وهى آراء ظل كتاب التراجم ومؤرخو الأدب يتناقلونها جيلًا بعد جيل، يجملونها أو يفصلونها قليلًا، ولكنها لا تبعد عن هذا المحتوى كثيرًا.

على أن هناك قلة طعنت فى ابن دريد عالمًا، واتهمته بالتسامح فى الرواية، وافتعال العربية،

---

(١) الديوان، ص ٨٣، والعلوى ٤١.
(٢) المسعودى، مروج الذهب، ٥١٨/٢.
(٣) أبو الطيب اللغوى، مراتب النحويين، ص ٨٤.
(٤) الزبيدى، طبقات النحويين، ص ١٨٤.
(٥) المعجم، ص ٤٢٥.

وربما كان أشدهم تحاملاً عليه أبو منصور الأزهرى، المتوفى ٣٧٠هـ - ٩٨٠م، فى مقدمة كتابه التهذيب، يقول:

«وممن ألف فى زماننا الكتب فرمى بافتعال العربية، وتوليد الألفاظ التى ليست أصول وإدخال ما ليس فى كلام العرّب فى كلامها: أبو بكر محمد بن دريد، صاحب كتاب الجمهرة، وكتاب الاشتقاق وكتاب الملاحن، وقد حضرته فى داره ببغداد غير مرة، فرأيته يروى عن حاتم والرياشى وعبد الرحمن بن أخى الأصمعى، وسألت إبراهيم بن محمد بن عرفة (يعنى نفطويه) فلم يعبأ من يكون، ولم يوثقه فى روايته...».

ثم ينتقل الأزهرى إلى قضية بحثه، فيقول: «وألفيته أنا على كبر سنه سكران لا يكاد يستمر على الكلام من سكره»[١] ويعاود الهجوم عليه عالما ثانية:

«وقد تصفحت كتابه الذى أعاره اسم الجمهرة فلم أرد على معرفة ثاقبة، ولا على قريحة جيدة، وعثرت من هذا الكتاب على حروف كثيرة أنكرتها، ولم أعرف مخارجها، فأثبتها فى كتابى فى مواقعها منه، لأبحث أنا وغيرى عنها»[٢].

وتوقف الدارقطنى، المتوفى ٣٨٥هـ - ٩٩٥م، فلم يقل رأيه واضحًا، لم يثبت ولم ينف فقد سئل: أثقة هو أم لا؟ فقال: تكلموا فيه[٣].

وأبدى ابن جنى، المتوفى ٣٩٢هـ - ١٠٠٢م، ويعتبر مؤسس مبدأ الاشتقاق الأكبر، الذى يبحث عما بين الصوت والمعنى من التناسب، رأيه فى كتاب الجمهرة، حين نسخ لنفسه نسخة منه، يقول: «وأما كتاب الجمهرة ففيه أيضًا من اضطراب التصنيف، وفساد التصريف مما أعذر واضعه فيه، لبعده عن هذا الأمر، ولما كتبته وقعت فى متونه وحواشيه جميعًا من التنبيه على هذه المواضع، ما استحييت من كثرته، ثم إنه لما طال على أومأت إلى بعضه وضربت البتة عن بعضه»[٤].

ولكن جلال الدين السيوطى، المتوفى ٨٦٣هـ - ١٤٥٩م، دافع عن ابن دريد فى كتابه المزهر، وعقب على منتقديه بقوله:

«معاذ الله!، هو برىء مما رمى به، ومن طالع الجمهرة رأى تحريه فى روايته، وسأذكر منه فى

---

(١) الأزهرى، التهذيب، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار ص ٧٦.
(٢) معجم الأدباء ١٨/١٣٠ - ١٣١.
(٣) القفطى، أنباء الرواة ٣/٩٥.
(٤) السيوطى، المزهر ١/٩٣.

هذا الكتاب ما يعرف منه ذلك، ولا يقبل فيه طعن نفطويه، لأنه كان بينهما منافرة عظيمة، بحيث أن ابن دريد هجاه بقوله:

لو أنزل الوحى على نفطويه ... لكان ذاك الوحى سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه ... مستأهل للصفع فى أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه ... وصير الباقى صراخًا عليه

وهجا هو ابن دريد بقوله:

ابن دريد بقره ... وفيه عىٌّ وشَره
ويدعى من حمقه ... وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين ... إلا أنه قد غيَّره

وقد تقرر فى علم الحديث أن «كلام الأقران فى بعضهم لا يقدح»[1].

وقد نقده ابن فارس، المتوفى ٣٩٥هـ - ١٠٠٥م فى أرجح الآراء، ورغم أنه أعجمى، الأصل فيما يبدو، أحب العربية واصطنعها لغة لنفسه، وتحمس فى دفع مثالب الشعوبية عنها، ولهذا لم يقتصر على النقد فحسب، وإنما سجل له ما رآه صوابًا منه[2]. وكان ابن دريد يورد كثيرًا مما أخذ عليه فى صيغة الشك، كأن يقول: لا أدرى، أو زعموا، أولا أقف على حقيقته، وفى المزهر للسيوطى أمثلة كثيرة لهذا[3].

ويلفت النظر أن أغلب الطاعنين على ابن دريد من الموالى: نفطويه، والأزهرى، وحمزة الأصفهانى، والكرمانى، وابن فارس، فهل كانت الشعوبية، وراء ما كتبوا، وبخاصة أن ابن دريد دافع طويلًا عن عروبته؟ وألف «الاشتقاق للرد على الشعوبية والشعوبيين»؟.

أين موقع ابن دريد من المذاهب السياسية التى كان يموج بها عصره؟

أول ما يرد على الخاطر أنه خارجى، فهو من عمان، وكان العمانيون فى زمنه أباضية متمسكين بالكتاب والسنة، ومسندهم الصحيح للإمام الربيع بن حبيب، ويميل إلى هذا الرأى ياقوت، لولا أنه رأى فى بيتين من الشعر هما:

ألا انما السلو الذى تخلصونه ... وتأقيط أثوار كتلك العبائث

---

(١) السيوطى، المزهر ٩٣/١، والديوان ص٧٦، وابن الأنبارى، نزهة الألبا ١٥٦، ومعجم الأدباء ٢٦٤/١.
(٢) حسين نصار، المعجم ٤٥٩/٢.
(٣) انظر مثلًا: ص ٣١٧/٢ و٣٥٢/٢ و٤٦٥/٣.

تعلة أيام وقد شارفتكم شوازبها بالمارقين الأخائث[1]

وقوله:

أترى الأزد يقسم الذل فيها خارجي وخارب عمروط[2]

إنه خارج على الخوارج[3].

ولكن عز الدين التنوخى محقق كتاب «وصف المطر والسحاب» يقول إن صديقه العمانى الذى أشرنا إليه فيما سبق، يرى أنه لا يعنى بالخارجى هنا أحد الخوارج من اتباع المذهب، وإنما يريد بها الغريب الخارج عن قومه. ويرى البعض أنه شيعى اعتمادًا على كثرة إيراده أخبار على واهتمامه بها، فثمة مخطوطة له فى مكتبة باريس تضم «مجموعة أقوال لعلى بن أبى طالب» وتضمن كتابه «المجتنى» ولا يزال مخطوطًا أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه إلى الحسن بن على، وأقوال الحكماء والفلاسفة[4]، ولكن حب آل بيت النبى لا يعنى التشيع بمفهومه المذهبى، والأمران جد مختلفين.

وارتآه السبكى فى كتابه طبقات الشافعية شافعى المذهب، ربما لأنه رثى الإمام الشافعى بقصيدتين، ولم يقدم لرأيه ما يدعمه، وحب الإمام الشافعى وتقديره ليس مقصورًا على أتباعه فى مذهبه الفقهى، ولكن هذه عادة من يؤرخون لمذاهبهم الفقهية، يحاولون أن يضموا إلى حظيرتها عظماء الرجال لأوهى الأسباب، وربما كان وراء رثاء ابن دريد للإمام الشافعى أن أم الشافعى كانت أزدية من عمان[5].

والحق أن الرجل بعيد عن الجدل المذهبى، فقد أخلص للعلم، ووهبه عقله ووقته، واحتفظ بمذهبه لنفسه فى حنايا ضميره، وبخاصة أن حياته العلمية وتآليفه وتدريسه لا تتطلب منه أن يصدر فيها عن مذهب فقهى، فآثر أن يقف ظاهرًا على الحياد بين التيارات المختلفة.

كان ابن دريد عالم لغة ونسّابة، وأورد «بروكلمان» قائمة كاملة لمؤلفاته هذه، وينسب إليه الحصرى القيروانى، المتوفى ٣٢١هـ - ٩٣٣م، أنه الذى ابتدع فن المقامات، فهو يقول: إن بديع الزمان الهمذانى ألف مقاماته «لما رأى ابن دريد قد أغرب بأربعين حديثًا، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها

(١) الديوان، ص ١٠٩، والعلوى ٦٢.
(٢) الديوان، ص ١٩٩ والعلوى ٧٤.
(٣) ياقوت، معجم الأدباء ٢٦٣/١.
(٤) بروكلمان، تاريخ الأدب العربى ١٨٤/٢، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٤.
(٥) السبكى، طبقات الشافعية ١٤٥/٢، والديوان ٧٠ - ٧٢.

للأفكار والضمائر، فى معارض حوشية، وألفاظ عنجهية، فجاء أكثرها تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترتفع له حجب الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، وفى وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضه بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفًا وتقطر حسنًا...»[1] ولم تصلنا مقامات ابن دريد كاملة، أو أحاديثه إن شئت، أو حتى شىء وافر منها، لكن ما رواه أبو على القالى منها يكفى للقول بأنها كانت وراء اتجاه بديع الزمان، فهما يتفقان اسمًا وغاية ولغة، وإن كانت أحاديث الأول، أى مقاماته، تدور حول حكايات عربية تمتزج بالحب والتاريخ، ومقامات الثانى، أى أحاديثه تدور على التسول والكدية، وتلتقط مادتها من واقع الحياة.

* * *

يجمع الذين عرضوا لابن دريد على أنه كان شاعرًا، فتلميذه المرزبانى يقول عنه: إنه «غزير الشعر»[2]، ويرى المسعودى أن «شعره أكثر من أن نحصيه أو تأتى على أكثره، أو يأتى عليه كتابنا هذا»[3]. ورغم الإشارات الكثيرة إلى غزارة شعر ابن دريد وفرته لم يذكر أى من المؤرخين السابقين أن ديوانه قد جمع فى حياته أو بعدها إلا القفطى، المتوفى ٦٤٦هـ - ١٢٤٨م، فقد ذكر فى كتابه إنباه الرواة: «إنه فى خمس مجلدات، وقيل أكبر من ذلك»[4].

وظل شعره مبثوثًا فى المصادر المختلفة إلى أن جاء السيد محمد بدر الدين العلوى، الأستاذ بجامعة على كرة، فاضطلع بعبء جمعه، وهو خير من يصف لنا الجهد الذى قام به، يقول فى مقدمة الديوان:

«... وطالعت ألوفًا من الأوراق، فاستخرجت قدرًا صالحًا من بطون الدفاتر والمجاميع، إلا أن ذلك لم يشف غليلى، فاستعنت بأرباب العلم من الشرق والغرب، والتمست منهم أن يدلونى على المكنونات فأصغوا إلى، وظفرت من عنايتهم بما يعتد به (ومع هذا فلا أدعى الاستقصاء) فحبست ساعاتى على تحقيق ما جمعته، وبذلت نفسى دونه»[5].

ويبلغ الديوان المجموع مائة مقطوعة وقصيدة، وقد تكون المقطوعة بيتًا أو بيتين أو عدة أبيات ورتبه هجائيًا، بدءًا بالهمزة، وانتهاء بالياء، وأعقبه بالمربعة الدريدية الشهيرة التى نظمها فى تسع وعشرين مقطوعة، كل مقطوعة أربعة أبيات، وبعدها ثلاث قصائد فيما يذكر من

---

(١) زهر الآداب للحصرى ٤/٥٨٥، تحقيق على محمد البجاوى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م.

(٢) المعجم ص ٤٢٥.

(٣) مروج الذهب ٢/٥١٨.

(٤) انباه الرواة ٣/١٠٠، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠.

(٥) مقدمة الديوان صفحة جـ.

الأعضاء ولا يؤنث، وفيما يؤنث منها ولا يذكر، وفيما يجوز فيه الأمران، وتجيء بعدها قصيدة لامية فى حرب وقعت قرب مسجد «دما» سنة ثمانين ومائتين.

وقد بذل السيد العلوى جهدًا طيبًا فى تقويم ما كان محرفًا أو مُصحَّفًا، وأوضح فى الهامش الأحداث التاريخية التى ترتبط بالشعر، وشرح من مفرداته ما ارتآه محتاجًا إلى شرح، وذيَّله بفهرس للقوافى، وآخر للأعلام، رجالاً ونساء وقبائل، وثالث للأماكن والبقاع والأودية والجبال والأنهار، ورابع للكتب التى ألمع إليها فى التعاليق.

وقد طبع الديوان فى القاهرة، بمطبعة لجنة التآليف والنشر عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

وبعد ربع قرن من الزمان قام التونسى عمر بن سالم بجهد آخر شبيه، فقد عكف من جديد على شعر ابن دريد يجمعه ويحققه ويدرسه، ونشر ديوانه فى تونس عام ١٩٧٣م، وكان قد بدأ فى جمعه عام ١٩٦٥م، لأن هذا العمل يمثل بعضًا من رسالته التى تقدم بها لنيل الدكتوراه من جامعة باريس بعنوان: «ابن دريد، حياته، آثاره وتأثيره» باللغة الفرنسية، ووعد بأن تنشر الدراسة باللغتين العربية والفرنسية، وهو وعد لما يتحقق، على الأقل فيما يتصل باللغة العربية.

وقد اعترف الأستاذ عمر بن سالم بأنه اطلع على الديوان الذى حققه بدر الدين العلوى، ولكنه رأى أن طبعته، «وإن سدت فراغًا طيلة ربع قرن من الزمان، إلا أنها أصبحت اليوم غير كافية لأسباب عديدة منها:

* أنها طبعة نافدة، ومفقودة من مكتبات المغرب وأوروبا.

* أن هذا الديوان لا يجمع كل ما تبقى من شعر ابن دريد، سواء من ذلك الشعر المتداول المنشور كالمقصورة، أو الشعر المدفون المغمور كالمثلثة، وبعض المقطعات الأخرى التى أثبتناها.

* أن تحقيقات العلوى يعتريها شىء من قلة الضبط، وخاصة فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التى لا يستفيد منها إلا المتبحرون فى العلم أمثاله.

* أن الديوان موضوع حسب الترتيب الهجائى للقوافى، وهو ترتيب أصبحنا نستغنى عنه الآن بإثبات فهرس ملحق بالكتاب لا غير.

* أن الطريقة التى اتبعها المحقق فى القصائد والمقطوعات طريقة عتيقة لا ترضى القارىء المعاصر، ولا تعطيه صورة عن الموضوع والمحتوى.

* أن طباعة الديوان وتنظيم صفحاته وضبط فهارسه لم تعد كافية فى أيامنا هذه[1].

وهو كلام مردود فى جله على صاحبه، لأن نفاد كتاب من المكتبات فى الشرق أو الغرب ليس

---

(١) ديوان ابن دريد، دراسة وتحقيق عمر بن سالم، ص ٧ و٨ تونس ١٩٧٠.

مبررًا لأن يعيد آخر طباعته ونشره، وترتيب الديوان هجائيًا، أو أبجديا، بحسب القافية يغنى عن فهرس لها، وهو أكثر فعالية، ولم أعرف ماذا يعنى بالطريقة العتيقة التى لا يرتضيها القارىء المعاصر، لأن منهج تحقيق التراث الآن معروف، ولا ينتبه المرء فيه إلى ما يرضى القارىء أو يغضبه، وليس واضحًا كذلك ما يعنى بأن طباعة الديوان وتنظيم الصفحات وضبط الفهارس عند العلوى لم يكن كافيًا.

إن ترتيب ديوان أى شاعر هجائيًا حسب القوافى له مبرراته المقبولة، والطريقة التى سار عليها الباحث التونسى من تقسيم الديوان موضوعيًا مقبولة ولها مبرراتها أيضا، ولو أنها فى الشعر العربى، وربما فى أشعار أخرى، مجهدة، فقد تتضمن القصيدة الواحدة أكثر من موضوع، كما أن الموضوع الواحد يمكن أن ينظر إليه من أكثر من زاوية، وقد أحس الأستاذ عمر بن سالم نفسه بذلك، فهو يقول فى المقدمة.

«لا يخفى على القارىء الكريم أن ما عهدناه من تبويب الشعر العربى لا يتماشى أصلاً مع ما عرف عن القصيدة التقليدية من شمول لمواضيع شتى، إذ قد يكون المحور الذى رتبت فيه هو أضعف محاورها إطلاقا. وأن قصيدة كالمقصورة تحتوى على أبيات فى الحكمة والاعتبار تفوق ما فيها من نسيب ومدح ووصف أضعاف المرات»[1].

اختط الدارس التونسى لنفسه منهجًا أوضحه فى المقدمة، يقوم على جمع القصائد والمقطعات تبعًا للموضوع المطروق، ورتبها فيما بينها ترتيبًا «ألفبائيا» باعتبار القافية، إلا فى قسمى شعر العصبية والشعر التعليمى، فقد فضل فى القسم الأول أن يخرج من باب المديح والرثاء والهجوم إلى باب مستقل للشعر السياسى بالمعنى الحديث، حتى لا تقوم حواجز الترتيب والتقسيم، فيما يرى، حائلاً دون إفادة القارىء إفادة تاريخية متماسكة، ورتب القصائد فى هذا القسم ترتيبًا يجارى سير الحوادث، لكى يتسنى له، فيما يقول، اتباع تطور أفكار الشاعر ومدى أضراره عليها من الزمن، وكذلك فعل فى القسم الثانى، فقد اعتبر المقصورة التى قيلت فى مدح الشاه ابن ميكال وابنه من الشعر التعليمى، لأن قيمتها فى نظره لم تعد فى هذه الأبيات القلائل التى ذكر فيها الممدوحين، وإنما فى قافيتها التى سارت بها الركبان، وتداولها من أجلها المؤدبون والمعلمون تلقينًا وتعليقًا، ومعارضة وشرحًا، كذلك خرج للغرض نفسه بالقصيدة التى قيلت للتعريض بالباهلى من باب الهجاء إلى باب الألغاز اللغوية، لأنها فيما يرى ليست إلا قائمة بالغرائب والمشتركات اللفظية التى حاول فيها الشاعر أن يظهر أمام منافف بمظهر الفقيه فى اللغة، المتبحر فيها[2].

على أية حال ثمة سبب كاف وحده لكى يقوم أى باحث على إعادة نشر ديوان سبق نشره

(١) المصدر السابق، ص ٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٨ و٩.

دون حاجة إلى التقليل من جهد سابقه، إذا كان ما نشر لا يتضمن كل شعر الشاعر وأن هناك جديدًا يمكن أن يضاف إليه، ونلحظ فى هذا المجال أن إضافة الأستاذ عمر بن سالم محدودة، لا تتجاوز عثوره على مثلثة لابن دريد، جاءت فى ثلاثة وتسعين بيتا من الرجز المشطور، عثر عليها فى ثلاث مخطوطات توجد فى دار الكتب الوطنية التونسية، إحداها كتاب «الكوكب الثاقب فى أخبار الشعراء وغيرهم من ذوى المناقب» لعبد القادر السلوى الفاسى، رقم ٢٩٦٨، وله مخطوطة أخرى، فى المكتبة نفسها تحت رقم ٣٣٦١، والثالثة لكتاب «رى الأوام ومرعى السوام فى نكت الخواص والعوام» لأبى يحيى عبد الله بن أحمد بن محمد الزجال الأندلسى، وتوجد تحت رقم ٤٤٠[١].

وهى إضافة جيدة دون أدنى شك، أما الإضافة الثانية، فالأبيات الأربعة التالية، وعثر عليها فى سمط اللآلى فى شرح القالى لأبى عبيد البكرى، المتوفى ٣٦٢هـ - ١٩٧٣م، ونحن نعرف أن القالى كان تلميذًا لابن دريد، وصحب معه إلى الأندلس كثيرًا من كتب أستاذه ورواياته:

وما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا فى كل وقت ... مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأى شوقًا إليهم ... ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى ... وتسخن عينه عند التلاقى[٢]

نظلم ابن دريد إذا قلنا أن ما جمع من شعره يعطى صورة كاملة، أو قريبة من الكمال لشاعريته، أو تقدم لنا كل ما أبدع، لأن جانبًا كبيرًا من شعره ضاع فيما ضاع من تراثه وتراثنا، وبخاصة أن الفاصل الزمنى بين الشاعر الذى أبدع، والعالم الذى جمع يتجاوز الألف عام.

ولا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير ليعرف أن ما بين أيدينا ليس كل ما قاله ابن دريد فبعض المقطعات، وحتى بعض القصائد، يبدو فى وضوح أنها أبيات مختارة من قصيدة مثل نونيته فى تأبين الإمام الشافعى، ومطلعها:

وإذا قرأت كلامه قدرته ... سحبان أو يوفى على سحبان[٣]

فواو العطف، وغيبة التصريع، والحديث عن فصاحته دون مقدمة أوتمهيد، يوحى بأن الأبيات

---

(١) أبو عبيد البكرى، سمط الآلى فى شرح القالى، تحقيق عبد العزيز الميمنى، ٩٨/٣، لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٣٥٤ هـ.
(٢) الديوان ص ٤٠.
(٣) الديوان ص ٧١، والعلوى ١٠٩.

بعض من قصيدة، وأحيانا تأتى القصيدة مسبوقة من الراوى بشارة تنبىء على أنها جزء من كل، كما فى القصيدة العينية، فقد قدم لها القالى بقوله:

وقال من قصيدة أولها:

قلب تقطع فاستحال نجيعًا ... فجرى فصار مع الدموع دموعا

ولكنه اكتفى منها بأربعة أبيات فحسب[1].

ولى صاحب ما كُنت أهوى اقترابه ... فلما التقينا كان أكرم صاحب

يعز علينا أن يفارق بعدما ... تمنيت دهرًا أن يكون مجانبى

وهما موجودان أيضًا فى الديوان الذى جمعه السيد العلوى، وللحق أنهما من مرويات ابن دريد عن أستاذه أبى عثمان الأشناندانى، فى كتابه معانى الشعر، وعلق ابن دريد عليهما بقوله: «عنى الشيب، ويقول: لم أكن أشتهى اقترابه، فلما حل كان أقرب صاحب علّى، ولم أحب مجانبته لأنه لا يجانب إلا بالموت»[2].

كما فات جامعا الديوان، العلوى والتونسى، أن يشيرا إلى ما ورد فى الأغانى بشأن البيتين:

يا من يقبل كف كل مخرق ... هذا ابن يحيى ليس بالمخراق

قبل أنامله فلسن أناملا ... لكنهن مفاتح الأرزاق

فقد ذكر صاحب الأغانى ما يفيد أنهما ليسا لابن دريدبل لإبراهيم بن العباس[3].

ولا يخالجنى شك فى أن متابعة دقيقة وشاملة لتراثنا، ومخطوطه أكثر من مطبوعه، سوف تهدينا إلى عدد أكبر من قصائد الشاعر ومقطوعاته، وقد وجدت له عند ابن المستوفى، شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمى، فى كتابه «نباهة البلد الخامل بمن ورد من الأماثل»، فى ترجمة عبد الله بن أبى الفضل، المتوفى ٥٨٩ هـ - ٦٤٣م، هذين البيتين:

يا راحلين بمهجة ... فى الحب متلفة شقيه

الحب فيه بلية ... وبليتى فوق البليه[4]

---

(١) أبو على القالى، الأمالى، ٧٩/١، والديوان طبعة العلوى ٧٩.

(٢) الديوان ص ٨٣، وطبعة العلوى ص ٤٠، ومعانى الشعر ص ٥٠، والسيد السنوسى: أبو بكر بن دريد الأديب وتحقيق وتعليق من أماليه، ص ٢٣٤، رسالة ما جستير بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.

(٣) الديوان ص ٦٤، وتحقيق العلوى ص ٨٧، والأغانى ٥٩/١٠، ونهاية الأرب للنويرى ٩٤/٢.

(٤) ابن المستوفى، نباهة البلد الخامل، تحقيق سامى بن السيد خماس الصقار، ونشرة ٩٤/٢.

ويروى له ابن المستوفى عن المدينى، على بن أحمد، هذين البيتين أيضًا:

ليس بينى وبين قلبى اتفاق ... رأيه فى الهوى يخالف رأيى
فمتى أخطو خطوة من أمامى ... يثب القلب وثبة من ورائى

وقد نسبهما جمال الدين الأسنوى، المتوفى ٧٧٢ هـ - ١٣٧٠م، فى طبقاته للشهرستانى صاحب الملل والنحل، المتوفى ٥٤٨ هـ - ١١٥٣م، ولكن ابن خلكان يقول: «ان الشهرستانى كان يروى هذين البيتين مسندين للدريدى[١]».

أبدى المسعودى رأيه فى شعر ابن دريد، وجاء مجملاً ودقيقًا، يقول: «كان يذهب فى الشعر كل مذهب، فطورًا يجزل وطورًا يرق»[٢]، وشاع القول فى عصره بأنه أشعر العلماء وأعلم الشعراء، وهى مقولة قد تحسب عليه، فأشعار العلماء قديمًا وحديثًا بينة التكلف، وشعرهم الذى روى لهم ضعيف، ولكن ابن بسام الأندلسى، المتوفى ٥٤٢ هـ - ١١٤٦م، وهو ناقد صارم فى أحكامه لا يداجى ولا يمالىء، استثنى من هؤلاء الشعراء «طائفة، منهم خلف الأحمر فإن له ما يستندر، وقطرب أيضا له ما يستغرب... والخليل بن أحمد له أيضا بعض ما يحمد، ومؤرخ السدوسى، وابن دريد من الشعراء العلماء، وكذلك من علماء البصرة أبو محمد اليزيدى وبنوه»[٣].

يمكن فهم شعر ابن دريد على ثلاثة أضرب متمايزة:

أولها غنائى بحت، وثانيها تعليمى خالص، وثالثها يصعب وضعه فى أحد الجانبين، لأن فيه غنائية واضحة، ومع ذلك لا يخلو من لمسات لغوية تحقق غاية علمية عملية، أو تغلب عليه المسحة التعليمية، ومع ذلك يجىء فى نظم رائق، يجمع المتعة إلى الفائدة.

* * *

يشغل الشعر التعليمى الخالص جانبًا محدودًا من ديوان ابن دريد، وشأن كل الشعر الذى من هذا النوع لم يحظ من عناية الدارسين إلابالقليل، حتى إننا لانجد أية دراسة مستقلة تتبع سيره عبر تاريخنا الأدبى بداية وتطورًا[٤]، وقد ظلمه عدد من النقاد حين طبقوا عليه قواعد الشعر الغنائى فوجدوه يفتقد العاطفة والخيال والصورة، ومن ثم اعتبروه لا شىء مع أنه نوع

(١) ابن المستوفى، نباهة الخامل، قسم ١ ص ٤٠٧، والأسنوى، طبقات الشافعية، ١٠٧/٢، تحقيق عبد الله الجبورى، بغداد ١٣٩٠ هـ، وابن خلكان، وفيات الأعيان ٤٠٤/٣.

(٢) مروج الذهب ٥١٨/٢.

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، نشر إحسان عباس، ٨٢٤/١.

(٤) حاولت ذلك بقدر ما تسمح به الظروف فى كتابى: الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه، فى الفصل الخاص بالأنواع الأدبية.

أدبى مستقل، صلته بالشعر الغنائى لا تتجاوز العروض والقافية، وقديم مثله، فى أدبنا العربى والآداب الأخرى على السواء، وله مقاييس تقويم خاصة به، أو ينبغى أن تكون إذا لم تكن وجدت فى أدبنا العربى.

لدينا من الشعر التعليمى عند ابن دريد منظومتان، الغاية منهما أساسا تعليم اللغة لطلابه، وربما أيضًا لإظهار مهارته فى التمكن منها، وأنه على علم بدقائقها وأسرارها.

أول هاتين المنظومتين فى المقصور والممدود، وأسماها بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى، وفى ملحقه عندما تحدث عن المدارس النحوية، وتبعه فى ذلك المستشرق فلوجل، المقصورة الكبرى، أو كتاب المقصور والممدود، ولا نعرف من أين جاء بالاسم الأول منهما، أما الثانى فسوف نعرض لمصدره بعد قليل. ويختلف عدد أبيات المقصورة فى المصادر المختلفة، مخطوطة أو مطبوعة، فيذكر بروكلمان أنها من خمسة وخمسن بيتا[1ظ]، على حين أنها فى طبعتها الأولى، وجاءت ذيلًا لشرح المقصورة الدريدية الذى طبع مع شرح لامية العرب للزمخشرى، ونشرته مطبعة الجوائب فى الآستانة عام ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٣م، جاءت فى واحد وأربعين بيتًا، وفى عام ١٣٣٩ هـ = ١٩٢١م، قام الأب لويس شيخو بتحقيقها وشرحها، ونشرها فى مجلة المشرق ثلاثة وأربعين بيتًا[٢]، وقد وهم بروكلمان فظن أن ما نشره شيخو منظومة أخرى فى المقصور والممدود، تختلف عما نشر ذيلًا لشرح المقصورة الدريدية، ثم قامت مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق بعد ذلك بتحقيقها وشرحها على نحو أفضل، وجاءت أبياتها فى هذه المرة أكثر عددًا، فبلغت سبعة وخمسين بيتا[٣].

هل هذه كل أبيات المنظومة أم ما وصلنا منها فحسب؟ أرجح الثانية، وأرى الجانب الأكبر منها ضائعًا، للأسباب التالية: فبروكلمان يسميها المقصورة الكبرى، ولو أنه لم يذكر لنا من أين اء بهذا الاسم[٤]، ولعله قرأه فى مخطوطة لم تصل إلى علمنا، وهو يعنى أنها أكبر من المقصورة الأخرى التى يتجه إليها الفكر حين يجىء الاسم مرسلًا، وهى التى حازت شهرة أوسع، وعدة أبياتها أربعة وخمسون ومائتا بيت، فى أكمل رواياتها، فلزم أن تكون المقصورة الكبرى استجابة للوصف أكثر عددًا فى الأبيات، ليجىء الوصف صحيحًا ومطابقًا لمحتواها. ثم التفاوت فى عدد أبيات كل قسم، فبعضها جاء فى ثلاثة وثلاثين بيتا، لى حين أن بعضها الآخر لم يتضمن غير بيت

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١٨٢/٢، والملحق الطبعة الألمانية ١٧٣/١.

(٢) مجلة المشرق، سنة ١٩٢١، المجلد ١٩، ص ٦٤ - ٦٦.

(٣) مجلة المجمع العربى، الجزء ٧، المجلد ٨، سنة ١٩٢٨، ص ٤٣٣ - ٤٣٧.

(٤) تاريخ الأدب العربى ١٩٨٢/٢.

واحد، وبداهة لم تستوعب كل جوانب المسألة اللغوية التى عرضت لها. وأخيرًا فإن ياقوت والسيوطى يعتبرانها كتابا بحاله[1].

جمع ابن دريد فى منظومته هذه الكثير من ألفاظ المقصور والممدود وأنواعها، وإن لم يأت عليها جميعها كما تعرض لها كتب النحو والصرف، كان التأليف فى هذا اللون من اللغة شائعًا على أيامه وقبلها وبعدها، فألف فيه يحيى بن المبارك اليزيدى، والفراء والأصمعى، وأبو عبيد بن سلام، والمبرد، وابن ولاد، وابن كيسان، وابن الأنبارى، وآخرون كثيرون غيرهم.

جاءت المنظومة فى خمسة وسبعين بيتًا، فى بحر الرجز، يضم كل بيت كلمتين متماثلتين، إحداهما مقصورة والأخرى ممدودة، مع اتفاق المعنى أحيانًا واختلافه أحيانًا أخرى، وهى تتضمن بعض الحكم والأمثال التى تخرج بها عن حد الشعر التعليمى.

وهى مقسمة على عدة أقسام، كل واحد منها مختص بنوع معين من الكلمات المقصورة والممدودة، وأول هذه الأقسام جاء فى ثلاثة وثلاثين بيتًا فيما يفتح أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف، ومطلعها:

لا تركنن إلى الهوى ... واحذر مفارقة الهواء

والثانى ما يكسر أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف، وهو فى ثمانية أبيات أولها:

كم من عظام باللوى ... قد فارقت خفق اللواء

والثالث ما يكسر أوله فيقصر، ويفتح فيمد، والمعنى واحد، وهو فى سبعة أبيات، أولها:

وأرى البلى يبلى الجد ... يد وكل شىء للبلاء

والرابع ما يضم أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى واحد، وجاء منه بيت واحد:

تهوى لقا ما لا يحـ ... ـل وبعده يوم اللقاء

والخامس ما يفتح أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى واحد وهو فى ستة أبيات أولها:

وسكنت بيتًا ذا غمى ... ولتخرجن من الغماء

والسادس ما يفتح أوله فيقصر ويكسر فيمد، والمعنى مختلف، وهو بيت واحد:

وأراك تنظر فى السحا ... لاضير فى نظر السحاء

والسابع ما يضم أوله فيقصر ويفتح فيمد والمعنى مختلف، وهو بيت واحد أيضًا:

شمس الضحى طلعت عليك ... ولاترى شمس الضحاء[2]

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء ١٨/١٣٦، وبغية الوعاة ص ٣١.

(٢) الديوان، ص ١٣٨ - ١٤٢، والعلوى ٢٩ - ٣٧.

وثمة ثلاث مقطوعات أخرى جاءت كل واحدة منها فى خمسة أبيات، أولاها من بحر الكامل، وهى فيما يذكر من الأعضاء ولا يؤنث وبدايتها:

يا سائلا عما يذكر فى الفتى ... لا غيره عن صادق لك يخبر
رأس الفتى وجبينه ومقذه ... والثغر منه وأنفه والمنخر

والثانية فى الصورة المقابلة لتلك وجاءت فى بحر البسيط، وهى فيما يؤنث من الأعضاء ولا يذكر، ومطلعها:

الساق والأذن والفخذان والكبد ... والقتب والضلع العوجاء والعضد

والثالثة فيما يذكر من الأعضاء ويؤنث على السواء، وجاءت فى بحر الطويل، وأولها:

وهذى ثمانى جارحات عددتها ... تؤنث أحيانا وحينا تذكر
لسان الفتى والعنق والإبط والقفا ... وعاتقه والمتن والضرس يذكر[1]

ومع أن هذا الشعر يفتقد جوهر الشعر الغنائى، وهو «التعبير عن تجربة»، ويستهدف غايات تعليمية عملية، لكنه صيغ فى ألفاظ عذبة، وله موسيقا منسجمة، وخال من التكلف الذى نجده فى المنظومات التعليمية عند الآخرين، ومرد ذلك أن الشاعر فيما أرى، تخفف من هذه المعلومات، وجاءت بجرد رصد للظواهر اللغوية، دون أن يجنح إلى التعقيد، مما يجعل الأبيات خفيفة على السمع، وضمنها شيئًا من النصائح، وأمشاجًا من الحكمة، من مثل قوله:

من خاف من ألم الحفا ... فليتجنب مشى الحفاء
وأرى الغنى يدعو الغنى(م) ... إلى الملاهى والغناء

* * *

يغطى شعر ابن دريد الذاتى كل الموضوعات التى يعرفها الشعر العربى قديمًا، من غزل ومديح وهجاء وحماسة وعتاب ووصف وخمريات وحكمة، وتتفاوت قصائده فى هذا الباب طولاً وقصرًا تفاوتًا شديدًا فأطولها، وهى التى قالها فى الحارث العمانى تبلغ ستة وتسعين بيتا، وهناك أبيات مفردة، ومقطعات كثيرة من بيتين حتى سبعة أبيات، وباستثناء مقطوعات قليلة جدًّا، تشى مناسبتها بأنها قيلت فى هذا العدد من الأبيات فعلاً، كما فى هجاء نفطويه، فالبقية يغلب على ظنى أنها بقايا قصائد طوال، ضاعت لسبب أو لآخر.

وأغلب ما وصلنا من هذا الشعر هو فى الحماسة أو يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالفخر والمدح القبلى، ووصلتنا قصائده كاملة، ربما لأن هذا الشعر يهم قومه، كما يهم شخصه، كما يهم رواته،

(١) الديوان، ص ١٤٣ - ١٤٤ والعلوى ١٢٤ - ١٢٥، وقد ذكر بروكلمان واهمًا أنها فى ثلاثة عشر بيتا، تاريخ الأدب العربى ١٨٣/٢.

فوصلنا كاملاً ونفهم منه أن ابن دريد كان معنيًا بأمور قومه وهو فى البصرة بعيدًا عنهم، شأنه وهو فى عمان مقيمًا بينهم.

وهذه القصائد تجمع بين ألوان شتى من الحماسة، فهو يمدح الأبطال والشجعان من قومه، وكيف كانوا، وأى مثل ضربوا وأنهم جديرون باتخاذهم قدوة، ويفخر بهم، وبنفسه، ويؤلب قومه على أعدائهم، ويحرضهم على الأخذ بثأرهم، ويرثى قتلاهم، ويدعوهم إلى نبذ الخلاف والتوحد تحت راية واحدة، وعند المطالبة بالثأر يدعوهم إلى ترك الدعة والترف والإعراض عن الشراب والغناء، وملذات الطعام، وإلى امتطاء الجياد وانتضاء السيوف:

ليس شأن الموترين مهاد ... وغناء ومزهر وشمول
وصبوح مباكر وغبوق ... وشواء ودرمك ونشيل
إنما ثوبه إذا اعتكر الاظـ ... ـلام ثوب الدجنة المسدول
ومهاداه غمرق فوق كفل ... عرشه غيهم البجاد مثول
وندیماه دائر الحد عضب ... وأمين الفصوص نهد ذليل[1]

والمديح فيها هو ما يمدح به العربى عادة، وما يردده الشعراء إجمالاً فى المناسبات المختلفة فالحارثى - مثلاً - ماجد، رحب المباءة، عظيم المقارى، نشط وجيه، ويتجلى كرمه فى الإبل المعدة لدفع المجاعات، وإقراء الضيوف، يقلب فيها ليختار، ثم انتقى بكرة ذات سنام عظيم، يرشح سمنها من جلدها، فنحرها فخرت صريعة، ومال إلى أخرى فاتقته برضيعها فجندله، ومال لثالث فصنع به كذلك، وتركه طريحًا، وجاء العبيد فمن بين من يسلخ الجلد بحثًا عن الشحم، ومن يستخرج الفرث. وفارت القدور الكبيرة الواسعة وأرزمت، وكان صوت هديرها أشبه بأصوات النوق المتبوعة بأولادها، وعلى فرش وثيرة ولينة راحوا يتعاطون الراح:

فلما أنخنا لم يؤده مناخنا ... ولم نتعلل عنده بالعلائث
ومال على البرك الهواجد مصلتًا ... وهن معدات لدفع المغارث
فحكم سيفًا لا تزال ظباته ... محكمة فى النماويات المثائث
فعيث ثم اعتام منهن بكرة ... من الكوم لم يعلق بها حبل طامث
فتر وظيفيها فخرت كأنما ... حبوالب رفغيها متون الخفافث
ومال لأخرى فاتقته بسقيها ... فجدله قصعًا ومال لثالث
فغادره يكبو وقام عبيده ... فمن كاشط عن نيهن وفارث
وأرزمت الدهم الرغاب كأنها ... تردد أرزام المثالى الرواغث[2]

(١) الديوان، ٩٥ - ٩٦، والعلوى ١٠٣ - ١٠٤.
(٢) الديوان، ١٠٣، والعلوى ٤٥ - ٤٦.

إنه مديح يغاير ما نعهده عند شعراء المديح الآخرين، فالمادح هنا لا يرى نفسه دون الممدوح وقال ما قال مسترفدًا، وإنما يمدح فكرة ورمزًا يرى فيه القبيلة كلها، وهو أحد أفرادها.

وبعيدًا عن المدح القبلى، لا نجد له غير قصيدة من أحد عشر بيتا يمدح فيها يحيى بن عبد الوهاب الملقب بالكاتب، وكان من أعيان البصرة، وتستغرق مقدمتها الغزلية وهى ذات طابع حديث ستة أبيات، ينتقل منها إلى مدحه بأبيات خمسة، لا جديد فى معانيها، فالرجل عالى الهمة، واسع الكرم، ثم مدح أبا أحمد حجر بن أحمد الجريمى، وكان فقيهًا ومحدثًا ومقرئًا، وعمدة جويم، بأربعة أبيات، تدور حول وصفه بالجود والمكانة، ومدح أحمد بن يحيى الواثقى، وكان المعتضد قد كلفه ما بين سنة ٢٧٩ هـ = ٨٩٢، ٢٨٩ هـ = ٩٠٢م بمهمة فى البصرة ببيتين أحدهما نلتقى به كاملًا فى أبيات الواثقى[١].

وإحساس ابن دريد بقبيلته، وأزديته، وقحطانيته واضح وقوى، وفخره مرتبط بفخره بقومه وزعامتهم وتاريخهم، وأنه من ذرى قطحان، وأنه رفيق النجوم تسأل عنه إذا غاب، وهو يفخر بنفسه شاعرًا، وصحيح أن الناس يعطون الشعراء ويصلونهم، ولكن ما يعطونه بالنظر إلى الشعر حقير تافه فالشعر بحر ولا يبالى بالزبد الذى يطفو فوقه حين تتلاطم أمواجه، وإنه لو حمل نفسه على قوله لأتى منه بكل عظيم، ولا ستخرج كل غامض، وانتزع من مكنونه غوامض سره، مما لا يقع على مدفونه باحث أو حافز أو حافص. وقد تشرب قوم أذلة الشعر فعزوا به، والشعر موفور لكل طالب وميسور لكل رائد. ولو استحلب الضروع الممتلئة، وما ترك لهم منه إلا ما فى الكرشة، وهو واثق من مضاء إدارته، وحزمه عقدة غير منحلة. فإذا عقد العزم فلن يقف فى طريقه شىء وإذا اعترضت الحادثات حزمه أقدم عليها فصدعها غير وان ولا متباطىء:

حبا الشعر تعظيمًا أناس وأنه ... لأحقر عندى من نفاثة نافث
وهل يحفل البحر اللغام إذا عمى ... فطاح على تياره المتلاطث
فلو أننى أجشمت نفسى اتباعاثه ... لأخرجت منه غامضات المباحث
وأبديت من مكنون غامض سره ... مدافن لم يظفر بها أبث آبث
تفوق دار الشعر قوم أذلة ... فعزوا به والشعر جم المرامث
ولو أننى أمرى حواشك دره ... تركت لهم منه فظوظ المفارث
أرانى ولا كفران لله واثقًا ... بتأريب حزم عقده غير والث[٢]

لا أعد بكاء ابن دريد للقتلى فى حماسياته رثاء، لأنه يجىء هناك وقودًا لإثارة الحمية وإلهاب المشاعر، ولا يقف ابن دريد عنده إلا بمقدار ما يخدم هذه الغاية، ومع ذلك فله قصائد أخرى

(١) الديوان، ٦٤، والعلوى ٨٧.
(٢) الديوان، ١٠٥، والعلوى ٤٨.

مطولة تدخل فى باب الرثاء، وصلنا بعضها كاملاً، وهو فى رثائه لا يبكى حكامًا ولا عمالاً ولا موسرين، وإنما وقفه على العلماء، الذين عاصرهم أو الذين بلغته مكانتهم وأول هؤلاء محمد بن جرير الطبرى، ٢٢٤ = ٨٣٩ - ٣١٠ = ٩٢٣، وهو أصلا فارسى رحل فى طلب العلم إلى العراق والشام ومصر، ثم نزل بغداد يعلم الحديث والفقه، وكان فى أول أمره شافعيًّا.

لقد جاء الطبرى إلى الحياة بعد ابن دريد بعام واحد، وغادرها قبله بأحد عشر عامًا، وإذا عرفنا أن ابن دريد دخل بغداد عام ٣٠٨، تأكد لنا أنه لقى الرجل حيًّا، وأن كلاهما كان فى الأعوام الأخيرة من حياته، وإن لم يهدأ نشاطهما العلمى، وأحسب أن ابن دريد كان يتابع نشاط الطبرى، وربما راسله، حتى قبل أن يلتقيا، وقد جاء رثاؤه له، فى خمسة وثلاثين بيتًا من الشعر، استهلها بأننا إزاء ما لا نملك له دفعًا ولا عليه تعقيبًا من أمور الله، وليس أمامنا إلا الصبر وخوف المولى، والتسليم بالقضاء والقدر، وقع منا موقع الكره أو الحب وفى العزاء ما يعزى، والأسى يطفىء جمر الأسى.

لن تستطيع لأمر الله تعقيبًا ... فاستنجد الصبر أو فاستشعر الحوبا
وافزع إلى كنف التسليم وارض بما ... قضى المهيمن مكروهًا ومحبوبًا
إن العزاء إذا عزته جائحة ... ذلت عريكته فانقاد مجنوبًا

ثم يعرض فى حكم مكثفة لأحداث الدهر، ويتحدث عن موت أبى جعفر، وقد صحبه علمه، ولم تكن وفاته وفاة رجل، وإنما علم الدين، ثم يمضى يعدد مناقب ابن جرير، عالمًا وتقيًّا، يرغب ويرهب، وتجلو مواعظه رين القلوب، ظاهره كباطنه، ومن يمدحه لا يأمن العجز والتقصير:

أودى أبو جعفر والعلم فأصطحبا ... أعظم بذا صاحبا إذ ذاك مصحوبا
إن المنية لم تتلفه رجلا ... بل أتلفت علما للدين منصوبا
أهدى الردى للثرى إذ نال مهجته ... نجما على من يعادى الحق مصبوبا
إن قال زمام الصدق منطقة ... أو آثر الصمت أولى النفس تهذيبا
تجلو مواعظه رين القلوب كما ... يجلو ضياء سنا الصبح الغياهيبا
سيان ظاهره البادى وباطنه ... فلا تراه على العلات مجدوبا
لا يأمن العجز والتقصير مادحه ... ولا يخاف على الإطناب تكذيبا[1]

وبعد أن عدد مناقبه، وجاءت فى ضمير الغائب، توجه إليه بالحديث المباشر مخاطبًا: لقد كنت مقوم الزيغ، والناصح المؤدى، جامع الأخلاق المطهرة، النائى عن الجهل، ولكن الموت سنة الحياة، يرده الناس جميعا على فظاعته وكراهته، وما موتك إلا موت العلم، ومن أعاجيب الزمان التى لا تنفد أن يطويك لحد وكنت تملأ «السهل واللوبا»:

(١) الديوان، ٦٧ - ٦٨، والعلوى ٣٨ - ٣٩.

كنت المقوم من زيغ ومن ظلع ... وفاك نصحًا وتسديدًا وتأديبا
وكنت جامع أخلاق مطهرة ... مهذبًا من قراف الجهل تهذيبًا
فإن تنلك من الأقدار طالبة ... لم يثنها العجز عما عز مطلوبا
فإن للموت وردًا ممقرا فظعا ... على كراهته لابد مشروبا
ومن أعاجيب ما جاء الزمان به ... وقد يبين لنا الدهر الأعاجيبا
أن قد طوتك غموض الأرض فى لحف ... وكنت تملأ منها السهل واللوبا[1]

ورثى ابن دريد الإمام الشافعى، المتوفى ٢٠٤ هـ = ٨٢٠م، بمرثيتين، إحداهما جاءت فى سبعة وعشرين بيتا، ولم يصلنا من الثانية غير خمسة عشر، ويلفت النظر أن الشافعى توفى فى القاهرة قبل مولد ابن دريد بعشرين عامًا، فما وراء هذا الرثاء الذى جاء متأخرًا، وقاله الشاعر فى شبيبته، ولكنه أكيد بعد أن تجاوز العشرين عامًا، لأن أول شعر قاله، كما يشهد هو على نفسه:

ثوب الشباب على اليوم بهجته ... فسوف تنزعه عنى يد الكبر
أنا ابن عشرين ما زادت ولا نقصت ... إن ابن عشرين من شيب على خطر[2]

ولم أتبين الدافع وراء رثاء الشافعى واضحًا إلا أن يكون قبليًا، فقد كانت أم الإمام الشافعى من الأزد فى أقوى الاحتمالات، وأقام هونفسه فى اليمن أعوامًا، حين ذهب إليها عمه أبو مصعب قاضيا[3]، وعلى أية حال فإن المرثية نفسها عمل شاذ لا يزال يحبو فى عالم الشعر، وجاءت مقدمة الأولى، وهى التى وصلتنا كاملة، غزلية يتحدث فيها الشاعر عن إنسان لعب المشيب بفوديه فرده عن التصابى، وربما دعاه الصبا فأطاع، لأن الشيب لا يقرع من لا يردعه لبه وحياؤه:

بملتفتيه للمشيب طوالع ... ذوائد عن ورد التصابى روادع
تصرفنه طوع العنان وربما ... دعاه الصبا فاقتاده وهو طائع
ومن لم يزعه لبه وحياؤه ... فليس له من شيب فوديه وازع[4]

ولكن ما الذى صده؟ أهو الحرص على جمع المال؟ إن الحريص عليه يعرف بأن ما يرعاه ضائع، وأنه مفارق ما جمع، وسوف يخمل مهما ملك منه، ولكن الذى يبقى هو العلم والمثل ابن ادريس الشافعى، فآثاره بعده خير دليل:

---

(١) الديوان، ٦٨ - ٦٩.
(٢) الديوان، ٨٤ والعلوى ٦٨ وانظر: والمحمدون من الشعراء ٢٠٣.
(٣) بروكلمان ٢٩٢/٣.
(٤) الديوان، ٧٠، والعلوى ٧٧ - ٧٨.

ويخمل ذكر المرء ذى المال بعده ... ولكن جمع العلم للمرء دافع
ألم تر آثار ابن ادريس بعده ... دلائلها فى المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهى خوالد ... وتنخفض الأعلام وهى روافع[1]

ثم يلمح إلى مناهجه ومذهبه، يجمع رأى ابن ادريس ابن عم النبى، وهى الضياء إذا أظلم الخطب، وأعضلت المشكلات، ويعرض له متوفى فلا يجيء على ذكر الموت أو الردى أو البلى كعادته، وإنما يشبهه بالمسيح على استحياء لأن هذا قد رفعه الله.

ثم يصف منهج الإمام ويعدد صفاته، وعندما نوازن بين مرثية الإمام الشافعى هذه ومرثية ابن جرير، نجد خلافا فى المطلع والمقدمة، ففى الأولى تجيء شيئًا يشبه الغزل إن لم تكنه، وفى الثانية دعوة إلى التسليم بقضاء الله وقدره، ولا تعليل عندى لهذا الاختلاف غير أن مرثية الشافعى قالها ابن دريد شاديًا شابًا مقلدًا، غير متمكن من تقاليد الشعر تمامًا، وغير قادر على الخروج عليها، على حين أن الثانية قالها وقد تجاوز التسعين، ماتت عنده دواعى الغزل، ومتمكن من تقاليد الشعر، وهى تستثنى الرثاء من المقدمات الغزلية أو الطللية.

وجاءت مرثية ابن دريد الثانية فى خمسة عشر بيتًا، وأراها بقايا قصيدة أطول، لأنها تخلو من أية مقدمة، ومن التصريع، ويجيء إجمالا فى البيت الأول ضرورة فى الشعر القديم ويبدؤها بواو العطف، وبحديث مباشر فيه إن الشافعى سحبان أو يوفى عليه، ولو شاهده معد يخطب، أو ذوو الفصاحة من بنى قحطان أقروا له أنه أولاهم بالفصاحة والبيان، ويعدد بقية صفات الإمام الشافعى، وأنه رب العلوم، وذو الفطنة، والإمام المجتهد، وكتبه توضح وجوه الحق، وتبرهن عليه بأجلى برهان، مستدلاً بالقرآن والسنة ويهدى الباحث فى دينه إلى اليقين، وقد وفقه الله إلى العمل بهذين الأصلين، وأمده بعونه، وأراه بطلان المذاهب التى كانت تعمل بالرأى قبله:

وإذا قرأت كلامه قدرته ... سحبان أو يوفى على سحبان
لو كان شاهده معد خاطبًا ... وذوو الفصاحة من بنى قحطان
لأقر كل طائعين بأنه ... أولاهم بفصاحة وبيان
هادى الأنام من الضلالة والعمى ... ومجيرها من جاحم النيران
الله وفقه اتباع رسوله ... وكتابه، الأصلين فى التبيان
وأمده من عنده بمعونة ... حتى أناف بها على الأعيان
وأراه بطلان المذاهب قبله ... ممن قضى بالرأى والحسبان[2]

وهناك مقطوعتان جاءت كل واحدة منهما فى أربعة أبيات، وأحسب أنهما بقايا قصيدتين،

---

(١) الديوان، ٧٠، والعلوى٧٨.
(٢) الديوان، ٧١ – ٧٢، والعلوى ١٠٩.

فنحن نعرف أن ابن دريد مندفع القول، تستجيب له القوافى، أولاهما من بحر الطويل، رائية القافية، وقالها فيمن يدعوه عبد الله بن عمارة، ولا نعرف من هو، ويغبط ابن دريد الثرى الذى صار قبرًا له، واحتوى الجود والشجاعة والوجاهة، ويتمنى أن لو كان قبره بين أحشائه، وأن يقاسمه عمره لو كان بإمكانه، ويستكثر على حفرة من أربعة أذرع أن تضم «ثقال المزن الطود» وهى فكرة تتردد فى مرثيات ابن دريد وتعكس الأبيات صلة قوية، وودًا خالصًا لهذه الشخصية، ولم أعثر لها على خبر فيما درست من مراجع، ويظن المستشرق الإنجليزى مرجليوث أنه ابن عمارة المذكور فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، ويحسب كرينكو أنه عمارة بن وثيمة بن موسى الفارسى، المذكور فى كتاب المنتظم لابن الجوزى[1]:

بنفسى ثرى ضاجعت فى بيته البلى ... لقد ضم منك الغيث والليث والبدرا
فلو أن حيًّا كان قبرًا لميت ... لصيرت أحشائى لأعظمه قبرا
ولو أن عمرى كان طوع إرادتى ... وساعدنى المقدار قاسمتك العمرا
وما خلت قبرًا وهو أربع أذرع ... يضم ثقال المزن والطود والبحرا[1]

وأما الأبيات الأربعة الأخرى وقالها فى عمه الحسين، فأشم فيها رائحة الواجب، وتأثره فيها دون تأثره فى الأولى، وهو يمدحه بأن العلا انهد بعده، ولم يبق وراءه من ينقض ويبرم، وانقلب عالى الأرض سافلها يوم احتوته، أزهر الوجه أبيضه:

نجم العلى بعدك منقض ... وركنه الأوثق منهض
يا واحدًا لم تبق لى واحدًا ... يرجى به الإبرام والنقض
أديل بطن الأرض من ظهرها ... يوم حوت جثمانه الأرض
ولى الردى يوم تولى به ... ووجهه أزهر مبيض[3]

والأبيات الأولى عذبة شفيفة، تؤذن بالشجن العميق، على حين بدا الشاعر فى الثانية محايدًا، يصف شيئًا من قبيل الواجب، وتساق فيها الكلمات سوقًا، كأنما يؤدى صاحبها واجبًا أمام الناس لابد أن يؤديه.

* * *

وابن دريد شاعر غزل، يهوى الجمال، ويطرب قلبه لمفاتن المرأة. وفى تعبيره عن لواعج هواه يجىء شعره عفًا لا إسفاف فيه، رقيقًا غير مفتعل ولا جاف، متوافقًا مع نبض القلب إيقاعًا، بهجة وسعادة وارتفاعا وانخفاضًا ووصلًا وهجرًا. ونلتقى به صبا فى ثلاثة مواضع من

---

(١) الديوان ٦٩ الهامس رقم ١، وطبعة السيد العلوى ص ٦٧، الهامش رقم ٢.
(٢) الديوان ٦٩، والعلوى ٦٧. (٣) الديوان ٦٩، والعلوى ٧١.

شعره: مقدمات القصائد ومقطوعات وصلت مستقلة، لا نعرف أكيدًا إن كانت خاطرة مرت بعقله أو قلبه، أو بقايا قصيدة طويلة أهملها الرواة وأبقوا على الغزل منها استحسانا أو لأسباب أخرى، ثم قصيدته المربعة، ومستوى غزله فى غير المربعة واحد، إذ أنه حتى فى مطالعه الغزلية لم يكن صانعًا ولا مقلدًا وإنما توارى بمشاعره وراء تقليد لا يعاب على مثله شاعرًا أن يبوح فيه بما يحس مهما كانت منزلته القبلية أو الاجتماعية، ولهذا جاءت رقيقة كغيرها من غزله المستقل.

تمثل العين ودورها فى الحياة العاطفية فكرة ملحة فى شعر ابن دريد الغزل، فهو يعرضها لنا نافذة تطل منها على ما يعتمل فى أعماق صاحبها، رضى أو سخطًا أو إثارة، وأداة نرى بها بديع صنع الله، وهى فى الرجل بعض وسامته، وفى المرأة قمة جمالها، ولا يكاد يخلو غزله، مقطوعة مستقلة أو مقدمة فى قصيدة، من صورة للعيون والدموع، على أن غزله فى مقدمات قصائده جاء فى ثلاث منها فحسب، فى القصيدتين اللتين مدح بإحداهما الحارث العمانى وبالثانية من يدعى يحيى بن عبد الوهاب، وأخيرة افتخر فيها بنفسه وقومه.

يصف ابن دريد عينين ساحرتين طرفها فاتر، وفيهما انكسار ونعس دون أن يخالطهما وسن، والسليم من نجا من تأثيرهما:

ليس السليم سليم أفعى حرة ... لكن سليم المقلة النجلاء
نظرت ولا وسن يخالط عينها ... نظر المريض بسورة الإغفاء[1]

وهو لا يقف عند عيون الحبيب، فى فتنتها، وإنما يصف عينى المحب نفسه، أو عينه إذا شئت وقد أدمنت النظر إلى خد الحبيب فتكاد تذيبه:

صدغ كقادمة الخطاف منعطف ... فى وجنة يجتنى من صحتها الورد
لو ذاب من نظر خد لرقته ... لذاب من لحظ عينى ذلك الخد[2]

ولدينا مقطوعة فى ستة أبيات، هى مطلع قصيدة، لأن تلميذه القالى راويها يقدم لها بقوله: «وقال من قصيدة أولها» ثم يكتفى منها بهذه الأبيات، وفيها رقة غير عادية، ومعان مبتكرة بالنسبة لتلك الأيام، ويفرق فيها بين من يقصر عن عذر حقيقى، ومن يتكلفه وليس له، ولو كان يعرف أن ألحاظ حبيبته مهلكة لا تخذ الحيطة لنفسه، وما يجرى فى مآقيه ليس دمعًا خالصًا، وإنما روحه أيضًا تحدرت مع دمعه:

ليس المقصر وانيًا كالمقصر ... حكم المعذر غير حكم المعذر
لو كنت أعلم أن لحظك موبقى ... لحذرت من عينيك ما لم أحذر
لا تحسبى دمعى تحدر إنما ... نفسى جرت فى دمعى المتحدر

(١) الديوان ٣٧، طبعة العلوى ٢٨.
(٢) الديوان ٣٧، العلوى ٦٥.

خبرى خذيه عن الضنا وعن البكا ... ليس اللسان - وإن تلفت - بمخبر
ولقد نظرت فرد طرفى خاسئًا ... حذر العدا وبهاء ذاك المنظر
يأسى يحسن لى التستر فاعلمى ... لو كنت أطمع فيك لم أتستر[1]

ويجىء تصويره لليل العاشقين جديدًا، وصورة مركبة، فعينه تسامر النجوم، فى الوقت الذى ينادم فيه الصبا، وقد جعلته الراح يبوح بما أخفى، وتجود عليه خيالاً بما منعته الكاعب واقعًا، وبدت الراح كاللجين المذاب، ويعلوها حبب هو الدر معقودًا، ثم ينادى الليل أن يبقى، وأن يدفع عنه الإصباح، فهو لا يريد لليله أن ينقضى:

وليلة سامرت عينى كواكبها ... نادمت فيها الصبا والنوم مطرود
يستنبط الراح ما تخفى النفوس وقد ... جادت بما منعته الكاعب الرود
والراح يفتر عن در وعن ذهب ... فالتبر منسبك والدر معقود
يا ليل لاتبح الإصباح حوزتنا ... وليحم جانبه أعطافك السود[2]

وفى إحدى سفراته إلى عمان نزل فى قرية تحت نخل، فإذا بفاختتين تتزاقان، فتثيران مشاعره ويغبطهما على أنهما لم يراعا بفرقة، ولن يشتت الدهر شملهما، ويوازن بينهما وبين حاله، قطع الشوق قلبه، ورغم ذلك صابر فى قساوة الصخر.

أقول لورْقَاوَين فى فرع نخلة ... وقد طفل الإمساء أو جنح العصر
وقد بسطت هاته لتلك جناحها ... ومال على هاتيك من هذه النحر
ليهنكما أن لم تراعا بفرقة ... ومادب فى تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلى قطع الشوق قلبه ... على أنه يحكى قساوته صخر[3]

ويصف لنا قلبه نشوان وتوديع محبوب، وبكاء المحب شوقًا إن نأى، وخوف الفراق إن دنا، وحنينه الدائم، ونلتقى عنده بمقطوعة، أحسبها بقايا قصيدة، يصف فيها المرأة الجميلة كما يتصورها.

بيضاء البشرة، شعاع خدها يكسف الشمس، هيفاء القامة، ضامرة الخصر، ريانة الأرداف، مشرقة الوجه فكأننا منه فى مشرق، فاحمة الشعر فكأنما منه فى مغرب، إذا أشرقت أعشت العيون:

غراء لو جلت الخدود شعاعها ... للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على دعص تأود فوقه ... قمر تألق تحت ليل مطبق

---

(١) الديوان ٣٨، والعلوى ٦٨ - ٦٩.
(٢) الديوان ٣٧ - ٣٨، العلوى ٦٥.
(٣) الديوان ٣٨، العلوى ٦٦.

وكـأنـنـا مـن فـرعـهـا فى مـغـرب　　وكـأنـنـا مـن وجـهـهـا فى مـشـرق
تـبـدو فـيـهـتـف لـلـعـيـون ضـيـاؤهـا　　الـويـل حـل بـمـقـلـة لم تـطـبـق[1]

ثم نأتى إلى المربعة، وهى مجموعة من المقطوعات تبلغ تسعا وعشرين، فهى بعدد حروف المعجم العربى، رباعية الأبيات، وجاءت فى أبحر مختلفة: ثمان منها فى الطويل، ومثلها فى الخفيف، وست فى الكامل، وثلاث فى المتقارب، واثنتان فى الوافر، وواحدة فى المنسرح، وأخرى فى الرجز، وكل مربعة لها قافيتها المستقلة، وبحرها المستقل، واستخدم فى قوافيها كل حروف العربية مرتبة هجائيا، مبتدئًا بالهمزة ومنتهيًا بالياء ومن هنا كانت أبياتها كلها ستة عشر ومائة بيت، وألزم نفسه بأن تكون المربعة، وكل بيت فيها، دائرية إن صح التعبير، فهى تبدأ، وكذلك كل بيت، وتنتهى بحرف القافية نفسه، ولنأخذ مثلاً المربعة الأولى:

أبـقـيـت لى سـقـمـا يـمـازج عـبـرتى　　مـن ذا يـلـذ مـع الـسـقـام لـقـاء
أشمت بى الأعـداء حـين هـجـرتنى　　حـاشـاك مـمـا يـشـمـت الأعـداء
أبـكـيـتـنى حـتى ظـنـنـت بـأنـنى　　سيصـير عـمـرى مـا حييت بـكـاء
أخـفـى وأعـلـن بـاضـطـرار أنـنى　　لا أسـتـطـيـع لـمـا أجـن خـفـاء[2]

وموضوعات المربعة ذاتية، أقرب إلى أن تكون غزلاً خالصًا، يشكو فيها المحب ألم الهجران، وشوق المحبين، مؤكدًا على البكاء، والسقام وعدم النوم، وطول الليل من الحزن والهجر والبعاد وقد أدى التزام الموضوع نفسه فى كل مربعة إلى تكرار المعانى، وجاءت فى صور جديدة، وفيها ألزم ابن دريد نفسه بما لا تستطيعه إلا قلة فى عصره وبعد عصره أيضًا، وهى بادرة سار عليها أبو العلاء المعرى، وبلغ بها الغاية تجويدًا وقيودًا وصنع معها شعرًا جميلاً، وأصبحت نمطًا راسخًا ومرتادًا فى الأدب العربى.

استهدف ابن دريد بالمربعة إبراز مقدرته شاعرًا ومتمكنًا من اللغة، ولم يستهدف بها غاية تعليمية، إذ ليس فيها ما يعلم، واختار لغزله أرق الكلمات وأعذبها وأكثرها شاعرية، فلا تقع فيها على لفظ غريب أو غامض أو حوشى.

وتتردد فكرة الشيب فى شعر ابن دريد واضحة، يرد الحديث عنه مستقلاً فى مقطوعتين كل واحدة منها فى بيتين، يرى فى أولاهما أن الشيب صاحب كريم، لم يكن يوده، فلما التقى معه كان أكرم صاحب، ويعز عليه أن يفارقه بعد أن تمنى دهرًا ألا يقترب منه، وفى الثانية يحدد لنا السن التى بدأ فيها الشيب يدبُّ فى شعره، وكان فى الخمسين من عمره، ورآه سقمًا غير مؤلم:

أرى الشيب مـذ جـاوزت خمسـين دائبًـا　　يـدب دبيب الصبـح فى غـسق الـظلم

(١) الديوان ٤٠، العلوى ٨٦.　　(٢) الديوان ٤١ – ٤٣، العلوى ١١٥ – ١٢٣.

هـو الـسـقـم إلا أنـه غـير مـؤلم ولم أر مثـل الشيب سقـمًا بـلا ألم[1]

ويعرض له فى ثنايا قصائده الطوال، وبخاصة فى المقدمة الغزلية حين تكون، ففى قصيدته التى يمدح بها يحيى بن عبد الوهاب يختم المقدمة بالحديث عنه، فالشيب وليس وعظ النصيح هو الذى صده عن الصبا، ثم يبدأ الحديث عن ممدوحه:

الـنـبـل يـشـوى وقـعـهـن وإنـمـا يصمى فيقصد وقعها الألحاظ
مـا صـده وعظ النصيـح عن الصبـا لـكـن نهاه مـشـيـبـه الـوعـاظ
لأبى عـلـىّ فى المـعـالى همـة تـسـمـو بـه وخـواطـر أيـقـاظ

والجانب الآخر من الصورة أن يتحدث عن نفسه شابًا، ولكنه يخشى على شبابه أن تنتزعه يد الكبر، ورغم أنه ابن عشرين لا زادت ولا نقصت هو من الشيب فى خطر:

ثـوب الشبـاب عـلى اليـوم بهجتـه فـسـوف تـنـزعـه عنى يـد الـكـبر
أنـا ابن عشـرين لا زادت ولا نقـصت إنّ ابن عشـرين من شيب على خـطر[2]

* * *

وابن دريد عالم مثل ما هو شاعر، ولذلك نجد له عدة مقطعات يحتفى فيها بالعلم والعلماء وعلماء الحديث من بينهم بخاصة، لتمييزهم بالصلاح والوقار والسكينة والحياء، وتمتعهم بين الناس بالمهابة والجلال، ويجل من قدر المؤدبين لأن العالم ابن نفسه، أغناه علمه عن حسبه، وإجلال العلماء يكون لمخبرهم وليس لمظهرهم:

لاتحـقـرن عـالـمـا وإن خـلقـت أثـوابـه فى عـيـون رامـقـه
وانـظر إلـيـه بـعـين ذى خـطر مـهـذب الـرأى فى طـرائـقـه
فـالمسـك إذ مـا تـراه ممتهنـا بـقـهـر عـطاره وسـاحـقـه
سـوف تـراه بـعـارضـى مـلك ومـوضع التـاج من مفـارقـه[3]

تضمن شعر ابن دريد خمس مقطوعات وقصيدة تدور حول رأيه فى الناس، وبعض أفكاره عنهم تتناثر فى معظم شعره تقريبًا، وتعكس فيما أرى ضيقًا بمجتمعه فى البصرة، فأقاويلهم كثيرة ولا أحد يسلم من لسانهم، وهم أشبه بزمانهم، لا يثبتون على وفاء ولا رأى:

الـنـاس مـثـل زمـانهم قـد الحـذاء عـلى مثـالـه
ورجـال دهـرك مـثـل دهـ ـرك فى تـقـلبـه وحـالـه
وكـذا إذا فـسـد الـزمـ ـان جرى الفساد على رجاله[4]

---

(١) الديوان ٨٣، العلوى ١٠٨.
(٢) الديوان ٨٤، العلوى ٦٨.
(٣) الديوان ٣٤، العلوى ٩٨.
(٤) الديوان ٢٢، العلوى ١٠٥.

وغايتهم لا تدرك:

فإن كان مقدامًا يقولون أهوج ... وإن كان مفضالًا يقولون مبذر
وإن كان سكيتًا يقولون أبكم ... وإن كان منطيقًا يقولون مهذر[1]

ثم أجمل آراءه فى قصيدة من ثمانية عشر بيتًا. أجمل ما قاله فى المقطوعات وأكده:

وإن كان ذا دين يسموه نعجة ... وليس له عقل ولا فيه طائل
وإن كان ذا صمت يقولون صورة ... ممثلة بالعى بل هو جاهل[2]

ولا نجد لابن دريد هجاء بالمعنى الدقيق للكلمة، لا فرديًا ولا جمعيًا، وإنما هناك ثلاثة مقطوعات فحسب تتصل بهذا اللون من القول، أولاها بيتان هجا فيهما، بألفاظ مهذبة أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد، وزير المقتدر من ٣١٨هـ = ٩٣٠م إلى ٣١٩هـ = ٩٣١م، لأنه أنقص رواتب العلماء والمنح التى كانت تصرف لهم من بيت المال، لمواجهة العجز فى الميزانية، بسبب سيطرة أم المقتدر على جباة الأموال والملتزمين بجمعها، وأن ضرره أعم من أبى خلاط وأبى الفرج بن حصن، وهما شخصيتان لم أقف لهما على خبر:

سليمان الوزير يزيد نقصًا ... فأحر بأن يعود بغير شخص
أعم مضرة من أبى خلاط ... وأعيا من أبى الفرج بن حصن[3]

وخمسة أبيات أخرى تناول فيها اختلافه مع نحوى لم يذكر اسمه، وكان الهجاء الثالث لنفطويه، لأن هذا نظم أبياتًا حط فيها من قيمة كتاب «الجمهرة» واتهم مؤلفه بأنه نقله عن كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى، وعرضنا للقصة كاملة فيما سبق من صفحات.

لا نجد لابن دريد شعرًا فى الوصف، أو الطبيعة كما أفضل، غير أبيات قليلة جدًّا لا تتجاوز وصف أترجة فى بيتين، وباقة نرجس فى خمسة، وشقائق النعمان فى أربعة وتفاحة فى بيتين، والغمام فى بيتين، وأوصافه دقيقة، وصوره محكمة، ولا يمكن القطع بما إذا كانت هذه الأبيات مستقلة إنشادًا أو أنها انتزعت لجمالها من قصائد أخرى ضاعت وسوف نكتفى منها بوصفه التفاحة:

وتفاحة من سوسن صيغ نصفها ... ومن جلنار نصفها وشقائق
كأن النوى قد ضم من بعد فرقة ... بها خد معشوق إلى خد عاشق[4]

وفى قصيدته الطائية التى يحث فيها قومه على الصمود والثأر، وقد أصابت عمان الدواهى بعد أن كانت آمنة مطمئنة، نجد وصفًا جيدًا ومتميزًا للحصان، لا يسير فيه على خطى سابقيه

(١) الديوان ٢١، العلوى ٦٨.
(٢) الديوان ٢٣، العلوى ٩٩.
(٣) الديوان ٧٥، العلوى ٧١.
(٤) الديوان ٥٢، العلوى ٨٧.

وجاء فى ثمانية أبيات تبدأ جميعها بفعل الأمر الموجه لاثنين على طريقة شعراء الجاهلية «قرطا» وقرط المهر وضع العنان عند أذنه خلف اللجام، والتقريط فى وضع اليد مع العنان عند موضع القرط منه تدليلًا له، وهو لا يستخدم لفظ فرس أو جواد أو حصان، وإنما يؤثر دائمًا «مهر» ويراه صديقًا مؤازرا يوم الروع، أحوى أحم، نضج وصلب، فى عينيه بريق، يعلك لجامه، ويحرك كاهليه، أغر، لا بد أن يدرك ثأره أو يلاقى حتفه:

قرطا مهرى العنان وشيكا ... فحرى لمهرى التقريط
قرطاه نعم المؤازر فى الر ... وع لاخلا منه ونعم الربيط[1]

ورغم ان ابن دريد كان متهمًا بالشراب، جاء حديثه عن الخمر فيما وصلنا من شعره قليلًا، فلم يعرض لها إلا فى ثلاثة مواضيع: مقطوعة من بيتين وصف فيهما لونها:

حمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق قبل مزاجها ... فلما مزجناها حكت خد عاشق[2]

ثم يعرض لها فى تفصيل أكثر فى قصيدته الفائية التى يفخر فيها بنفسه: هى معتقة، اصطفتها الجن قبل أن يسكن الكون، ومهما بلغ الخيال لا يدرك كنهها، فى الجسم تسرع، وفى الكأس بطيئة، مشرقة والليل داكن، يصرف الشارب نظره عنها وهو ثمل، وقد تجاوز تحريمها، والله غفور رحيم:

وعقار عتقتها ... بعد أسلاف خلوف
كانت الجن اصطفتها ... قبل والأرض رجوف
فهى معنى ليس يحتـ ... ـط به الوهم اللطيف
وهى فى الجسم وساع ... وهى فى الكأس قطوف
وهى ضد لظلام الليـ ... ـل والليل عكوف
يصرف الرامق عنها ... طرفه وهو نزيف
قد تعدينا إليها النهـ ... ـى والله رؤوف[3]

وأخيرًا يعرض لها فى مقصورته، وخصها بسبعة أبيات، سوف نعرض لها عند حديثنا عن المقصورة[4].

ويبقى معنا ما يمكن أن نسميه بالشعر الاجتماعى، ويتضمن الإخوانيات والعتاب والاعتذار وعيادة مريض، وما ورد منه قليل جدًا، فهناك بيتان توجه بهما إلى ابن أبى على حين رده الحجاب، كما ألمحنا إلى ذلك قبلًا، والثانية اعتذار إلى أبى الحسن القاضى، عمر بن محمد بن

(١) الديوان ٩٨، العلوى ٧٣.
(٢) الديوان ٥٢، العلوى ٨٦.
(٣) الديوان ٥٦، العلوى ٨١.
(٤) الديوان ١٣٦ - ١٣٧.

يوسف، ومنعه المطر من أن يسير إليه فى موعده، وجاءت فى ثلاثة أبيات، ومثلها فى عتاب أبى الحسن الوزير، على بن عيسى، وتولى الوزارة للمقتدر ثلاث مرات، ويبدو إنه تشفع عنده فى أمر، ويذكره بأن أفضل أيامه تلك التى يعلق الناس فيها خيرًا عليه، فإذا «عجزت فلن ترى من تهوى».

لقد عمر ابن دريد طويلاً، وسافر كثيرًا ولقى أشخاصًا عديدين، وعاش فى بيئات مختلفة، فأكسبه ذلك حنكة وقدرة على تكثيف تجربته فى أبيات صارت مثلاً، وهذه الحكم لا يختص بها لون معين من شعره، وإنما تلقاها متناثرة عبر كل أبياته، غنائية أو تعليمية أو تجيء بينهما.

وأخيرًا نأتى إلى الشعر الذى يجيء فى طبقة بين بين، فلا هو غنائى خالص، ولا هو تعليمى بحت، وإنما يتلاقى فيه الأمران فى انسجام يخرج به عن حد أى منهما ليجعل منه شيئًا متميزًا.

وأول شيء نلتقى به فى هذا المجال المقصورة، وحين يجيء اسمها مرسلاً دون أية إضافة أخرى لا ينسحب إلى غيرها، وهى قصيدة مقفاة بألفاظ تنتهى بألف غير ممدودة وتبلغ عدة أبياتها أربعة وخمسين ومائتين، وجاءت فى بحر الرجز، وبقدر ما أهمل الأدباء القدامى والمحدثون شعر ابن دريد بقدر ما اهتموا بها، يقول ابن خلكان: «وقد أعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين، وشرحوها، وتكلموا على ألفاظها»[1].

ولن أقف عند فن المقصورة ونشأته وتطوره فى الأدب العربى طويلاً، فقد تناوله أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام فى إحاطة ودقة عندما درس مقصورة حازم القرطاجنى[2]، وتناوله بإفاضة أحمد عبد الغفور العطار عندما حقق شرح ابن هشام اللخمى الأندلسى لها، والذى أخذ عنوان: «الفوائد المحصورة فى شرح المقصورة» فقد مهد للنص بمقدمة وافية فى مائة صفحة كاملة، عرض فيها للمقصور والممدود نحوًا وصرفًا، وللقافية المقصورة فى الشعر الجاهلى، وأثر القرآن فى الشعر المقصور، والحفاوة بمقصورة ابن دريد، وشروحها، والذين عارضوها أو خمسوها أو سمطوها[3] وفيما قاله هذان العالمان الجليلان كفاء.

غير أن المقاصير التى سبقت ابن دريد اندثرت كلية أو فى جانب كبير منها، وكان هو الذى أحيا هذا الفن، ونالت مقصورته من الشهرة والانتشار ما لم تحط به مقصورة أخرى،

---

(١) الوفيات ٣/٤٤٩.

(٢) محمد مهدى علام، أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة فى الأدب العربى. حوليات كلية الآداب، جامعة إبراهيم باشا الكبير (عين شمس الآن) المجلد الأول، سنة ١٩٥١، ثم أعاد نشرها فى كتابه دراسات أدبية، ص ٦٧ - ٩٧، القاهرة ١٩٨٤.

(٣) محمد بن أحمد بن هشام اللخمى، الفوائد المحصورة فى شرح المقصورة، تحقيق أحمد عبد الغفار عطار، المقدمة ص ٧ - ١٠١، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م.

ومخطوطاتها توجد فى معظم مكتبات العالم العامة، شرقًا وغربًا، وأحيانا تضم لها المكتبة الواحدة أكثر من مخطوطة، وحظيت بالعديد من الشروح، ولو أن كثرتها لا تعنى فى غالب الأحيان شيئًا كثيرًا، لأن الشراح ينقلون عن بعضهم البعض مع إضافات قليلة، وأحسب أنها كانت محاضرات للأساتذة، دونها طلابهم، ونسبوها إلى شيوخهم ولم يكن يعنى بها الشراح بدءًا أن تكون كتبًا تنسب إليهم.

تبدأ المقصورة ببيت يتحدث فيه ابن دريد عن ظبية تشبه المها، وترعى الخزامى بين أشجار النقا، ويجىء هذا البيت منبت الصلة بما بعده، والكثير من مخطوطات المقصورة لا يتضمنه، وساقط فى معظم الروايات، ولا يرد إلا فى رواية ابن راهويه المتوفى ٢٣٧، أو٢٣٨ هـ = ٨٧٢م، فبعده مباشرة سوف يبكى شبابه الذاهب، ويصور مشيبه الزاحف، وقد اشتعل فى رأسه اشتعال النسيم فى جزل الغضا:

يا ظبية أشبه شىء بالمها ... ترعى الخزامى بين أشجار النقا
أما ترى رأسى حاكى لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض فى مسوده ... مثل اشتعال النار فى جزل الغضا

ثم يشكو ما فعل الدهر به، وشدة ما يلقى فى غربته من قسوة مبكية، وهو الجلد الصبور، ويعلن عجزه عن تغيير صروف الزمان الشغوف بتفريق الجموع، وتحطيم القوى، ولكنه ليس وحده فى مواجهة صعاب الدهر، فقد فعل الزمن بأشراف قومه ما يفعل به الآن، وماتوا دون أن يحققوا آمالهم ويضرب المثل بامرئ القيس، وابن الأشج (عبد الرحمن بن محمد ابن الاشعث بن قيس الكندى) والوضاح (جذيمة الأبرص) ويزيد بن المهلب بن أبى صفرة وبآخرين حققوا غاياتهم بعزيمتهم وشجاعتهم مثل: عمرو بن عدى، وسيف بن ذى يزن وعمرو بن هند:

إن امرأ القيس جرى إلى مدى ... فاعتاقه حمامه دون المدى
وخامرت نفس أبى الجبر الجوى ... حتى حواه الحتف فيمن قد حوى
وابن الأشج القيل ساق نفسه ... إلى الردى حذار إشمات العدى
واخترم الوضاح من دون التى ... أملها سيف الحمام المنتضى
فقد سما قبلى يزيد طالبًا ... شأو العلا فما وهى ولا ونى
فاعترضت دون الذى رام وقد ... جد به الجد اللهيم الاربى
هل أنا بدع من عرانين علا ... جار عليهم صرف دهر واعتدى

ويتساءل: أيقسم بالنوق التى تحمل الحجيج، أم بالخيل الدريرة عليها بواسل الفرسان يخوضون الحرب غير وجلين ولا خائفين؟ إنه يؤثر أن يحلف بالاشراف من سلالة يعرب ابن يشجب بن قحطان أصل العرب، وخلال ذلك يصف السيف والفرس وصفًا دقيقًا مفصلًا، دافعًا

عنها كل عيب يتصور، ويصف مسيره إلى فارس، ومفارقته العراق وأهله، لا عن قلى فهم القمة والناس دونهم.

ويخلص من حديثه عن الوفاء للعراق وأهله إلى الغرض الأصلى من القصيدة، وهو آل ميكال، فيوفيها حقها من المديح والثناء، ويخص تلميذه إسماعيل بشيء من الثناء قبل أن يعود إلى شكرهما معًا.

ثم يتحدث عن ذكرياته شابًّا، ويخص بالذكر غادة هيفاء لاعبته يومًا، تضنى وتقسم، وتدل وتنأى، لو ناجت الظبى لأطاع أمرها، أو أصابت القانت لنسى نسكه، ومن جديد ينوه بقدرته على اقتحام الصعاب، ولا يصيبه يأس أو قنوط، يقابل خصمه بالأشد، ويعتصم بالحلم، وينأى عن الطيش والجهالة فى غير ضعف ولا وهن، صيانة للعرض، وحفاظًا على الشرف والكرامة:

ولا عبتنى غادة وهنانة ... تضنى وفى ترشافها برء الضنى
تفرى بسيف لحظها إن نظرت ... نظرة غضبى منك أثناء الحشا
على خدها روض من الورد على الـ ... ـنسرين بالألحاظ منها يجتنى
لو ناجت الأعصم لانحط لها ... طوع القياد فى شماريخ الذرى
أو أصابت القانت فى مخلولق ... مستصعب المسلك وعر المرتقى
ألهاه عن تسبيحه ودينه ... تأنيسها حتى تراه قد صبا

ومع اقتراب الشاعر من نهاية القصيدة تشغله فكرة الموت أكثر، وأى امرئ يأمل فى امتداد العمر وديمومة الشباب، ولكن الحقيقة وهى غير ما نؤمل تفرض نفسها عليه، فليتقبلها راضيًا، ثم يتحدث عن رحلة فى الصحراء شاركه فيها بعض الفتيان، فكان يحثهم على السير فى الليل والجد فيه رغم الظلام، ثم يرد بئرًا بعيد العهد بالأنس، حوله الذئب يعوى، وما خافه ولا تردد ويصوره لغزا، النار تصدر عن حك الأغصان بعضها ببعض:

ومنتج أم أبيه أمه ... لم يتخون جسمه مس الضوى
افرشته بنت أخيه فانثنت ... عن ولد يورى به ويشتوى[1]

---

(١) كانت العرب إذا أرادت استخراج النار أخذت عودين من المرخ (ويقال له الكلخ والعفار والدفلى)، فتقرض فى أحدهما قرضًا، ثم يدخل العود الآخر فى ذلك القرض وتحكه حتى تخرج النار، والغصن الأعلى يقال له الزند، والأسفل الزندة.

وهو يريد أن يقول: رب غصن مولود، أم مختار أم أبيه، يعنى الأرض، لأن الأرض أم الغصن، وأم الأصل الذى نبت فيه، فصارت أم أبيه، ويحتمل أنه يريد غصنًا قطع من شجرة، فالفرع أبو الغصن، وتلك الشجرة أم الفرع وأم الغصن لأنها منها فصارت أم أبيه. والزندة من غصن أخو ذلك الغصن الذى أخذ منه الزند، لأن الأرض أمها، فهذه الزندة بنت أخى هذا الزند.

ثم صعدت جبلاً صعب المرتقى، أملس الجوانب، يرقب الطريق، والشمس تشوى الوجوه، وأضاء النيران كى يهتدى بها السائرون، ويأوون إليه فيقدم لهم القرى. ومن الصحراء إلى مناجاة طيف الحبيب جاء من بعيد، رغم الأهوال، واهتدى إليه وهو لا يعرف شيئًا عن موضعه فى فارس، ويتخذها مندوحة ليرد على سؤال طالما ألح عليه: ما الذى أزعجه عن وطنه؟ ولا يجد له جوابًا غير أنها إرادة الله ويذكره طيف الحبيب، والحديث عن الوطن، بألوان من العبث والمجون أصابها شابًا، ويلوم نفسه عليها، ويخلص من ذلك إلى أبيات يعرض فيها للخمر، معتقة بنت ثمانين حولاً، صرفا غير ممزوجة بالماء، وهى الداء والدواء، وأراه أخذ هذه الفكرة من بيت أبى نواس الشهيرة: «وداونى بالتى كانت هى الداء»:

يا رب ليل جمعت قسطريه لى ... بنت ثمانين عروسًا تجتلى
لم يملك الماء عليها أمرها ... ولم يدنسها الضرام المحتضى
حينًا هى الداء وأحيانًا بها ... من دائها إذا يهيج يشتفى
قد صانها الخمار لما اختارها ... ضنًا بها على سواها واختبى
فهى ترى، من طول عهد إن بدت ... فى كأسها، فى أعين الناس كلا
كأن قرن الشمس فى ذرورها ... بفعلها فى الصحن والكأس اقتدى
نازعتها أروع لا تسطو على ... نديه شرته إذا انتشى

وتأتى النهاية ليعترف فيها ابن دريد بأن شيئًا من لذائذ الدنيا لم يفته، فإن فجأه الموت فقد تناهت لذته، وبلوغه القمة يؤذن بالنهاية، وإن عاش صحب دهره عالمًا بما ينطوى عليه من أحداث، فلن تهزه النكبات، ولن تبطره البهجة.

وتدخل معنا المثلثة[١١٨]، وندين بفضل معرفتها للباحث التونسى، عمر بن سالم، فى هذا الباب أيضًا، فهى ليست من الشعر الغنائى الخالص، ولا من النظم التعليمى، وإنما مجموعة من الحكم والأمثال سجل فيها ابن دريد تجاربه مع الحياة والناس بطريقة محايدة، خرجت من حيز التعبير عن الذات إلى دائرة التجريد، وجاءت فى بحر الرجز المنهوك فى ثلاثة وتسعين بيتًا، وللأبيات الثلاثة قافيتها المستقلة، وصاغها فى لغة سهلة للغاية على غير عادته، وقد يشمل كل بيت حكمة مثل:

ما طاب فرع لا يطيب أصلُهُ
حمى مؤاخاة اللئيم فعلتُهُ
وكل من واخى لئيمًا مثله

---

(١) الديوان ٢٥ - ٢٦.

وقد تتوزع الحكمة على بيتين ويختص الثالث منها بأخرى، مثل:

يـا ربمـا أورثـت الـلجـاجـة
مـا ليس للمـرء إليـه حـاجـة
وضيق أمـر يتبـع انـفـراجـة

ومن هذا الباب أيضا قصيدة ابن دريد التى قالها يعرض فيها بالباهلى، أبى العلاء محمد ابن أبى زرعة[1] وقتل يوم دخول الداعى صاحب الزنج البصرة سنة سبع وخمسين ومائتين وذلك يعنى أن ابن دريد قالها قبل ذلك التاريخ، أى قبل أن يرحل إلى عمان، ونحن نعرف أنه هاجر من المدينة قبل هجوم الزنج عليها بعام[2].

وقد تهاجى الاثنان: ابن دريد والباهلى، وتفاقم الأمر بينهما فتنافرا إلى أبى خليفة الفضل بن الحبا، وكان من علم اللغة والشعر بمكان عال، يأتيه أهل الحديث فيقرءون عليه، فإذا أتاه أهل اللغة تحول إليهم وترك أهل الحديث، وقال: هؤلاء غثاء. فلما تنافرا إليه اجتمع وجوه أهل البصرة، ثم تناشدا، فقال ابن دريد قصيدته التى بين أيدينا، وأنشد الباهلى قصيدة جاء فيها:

أبـا بـن دريـد يـقـيـسـونـنى لقـد ضـربـونى بسيف كهـام

فقال أبو خليفة، أراك جعلت نفسك ضريبة، وجعلتـه سيفا، ثم غلب ابن دريـد عليه، وانصرف أهل البصرة عن مجلسه، وهم يرون أنه قد أصاب الحكم.

لم أقع على قصيدة الباهلى فى أى مصدر آخر مما وصل إلىّ غير هذا البيت الذى بين أيدينا، وأورده الزبيدى[3]، وجاءتنا قصيدة ابن دريد كاملة فى ديوانه، فى ستة وخمسين بيتًا، فى بحر الهزج. ومطلعها:

ديـار الحـى بـالـرس إلى العمـرين فـالأبـرق
كرجع النقش فى الـطررس إذا نمـق لم يـنـمـق

وبعد أبيات يتحدث فيها عن المشيب والابتعاد عن اللذات لدنو النهاية، يعرض رأيه فى الأدب فيرفض الفاسد من الكلام، والشعر إذا غمض واحتاج إلى بيان، ويفضل منه السهل الجميل وأحلاه ما كان رجَزًا، ولأمر ما يطلق العروضيون على هذا البحر حمار الشعر لسهولته، ومع ذلك أتى فيه بالغرائب المقلقة:

شنيت الكلم المـدخـول والشعـر إذا استغلق
بـل السهو الـذى يشبـه نـور الـروضـة المؤنق

(١) الديوان ١٤٤ - ١٤٩.
(٢) الزبيدى، طبقات النحويين ١١٠.
(٣) المصدر السابق، ص ١٨٢.

اجـل أن البيـان الـرجـز يـدعى حليـة المنـطق
ومـا أغــربت بـــل أفلقت أن المغـــرب المفلق

ثم يوجه إلى الباهلى فيضًا من الأسئلة عن معانى طائفة من الكلمات اللغوية الغريبة، مما لا يتأتى للمرء أن يقع على معانيها فى سهولة، ويمضى فى أسئلته حتى آخر القصيدة موجها السؤال بما غالبًا، وبهل مرة واحدة وبخبرِّنى مرتين، وقد يجىء السؤال عن الكلمة مرسلة، أو مقيدة بصفة أو صفات، والأغلب أن يتضمن البيت سؤالاً عن كلمة واحدة، وأحيانًا عن كلمتين، أو عن معنى ثلاث كلمات، ويتجاوز عدد الأسئلة ستة وستون سؤالاً.

لم يقدم ابن دريد جوابًا لأسئلته، وانتظرها من منافره وأصاب عمر بن سالم جامع الديوان حين أعطاها عنوانًا: «ألغاز لغوية» ولا أظن الشاعر أراد بها التعليم بقدر ما أراد بها التحدى وإظهار مواهبه، وهى تقترب من الشعر الغنائى بقدر المسافة التى تبتعد بها عن الشعر التعليمى، وصعب أن تلحقها بأى منها. ونأتى على بعض أبياتها مثلاً:

فيـا للنـاس مـــا الـزّيم إذا فصـــل أو دهق
ومـــا التتميم فى الميسـر إن جمـــع أو فـــرق
ومـا النعـو مـا البغـو ومـا المعـو إذا يفـرق
وخبـــرنى عن السبت وسعم الحـــرة الخيـفق
وهـل تعرف بـالليل حـوى الخبت إذ يـطرق

بقى أن نصوب خطأ وقع فيه «بروكلمان» وسار على خطئه بعض الباحثين، فهو يقول: إن الباهلى المقصود فى هذه القصيدة هو أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلى، وينص على أنه تلميذ الأصمعى، وأنه لم يبق لنا شىء من مصنفاته[1]، ومحال أن يكون المقصود أحمد بن حاتم هذا، لأنه توفى عام ٢٣٥ هـ = ٨٤٨ م، وابن دريد ولد ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م، أى أن سن ابن دريد كانت عند وفاة أحمد بن حاتم اثنا عشر فى أبعد الأحوال، والمنافرة لا تكون إلا بين ندين فى العلم متقاربين فى السن، وهو ما نعتقده فى هذه الحـالة، وأخيـرًا فإن الـزبيدى فى طبقـات النحويين، وربما نقلاً عن أبى على القالى تلميذ ابن دريد، نص على أنها كانت مع أبى العلاء محمد بن أبى زرعة، كما ألمحنا فى البدء.

* * *

تبلغ قصائد ابن دريد فى إحكام نسجها وجزالة لغتها مستوى المعلقات، وإن غربت فى بعض ألفاظها، ومفيد لحاضرنا أن تُدرس وأن تُدرّس، على أن يمهد لدارسيها من الناشئة بنثرها فى

(١) بروكلمان ٢/١٦١ و٢/١٨٢.

بساطة، فسوف تمد الشادين منهم فى مجال الأدب شعرًا أو نثرًا بزاد لا ينفد وتثرى معجمهم اللغوى، فيعينهم على تنويع الصورة، ويتاحون مفرداتهم من معين ثرى، ذلك أن ابن دريد عالم وشاعر، وهو يصدر فى أدبه عن مخزون واسع من التراث، والتمكن من اللغة، والإحاطة بلهجاتها وغريبها، وهو فى شعره مبدع ماهر، وصانع مقتدر، تواتيه القافية التى يريد، والبحر الذى يود، واللفظة التى يحب، ومن هنا فحتى شعره التعليمى لا يخلو من رقة وعذوبة، ولا تعوزه الحكمة والتجربة ينثرها فى أبياته، وفى شعره الغنائى مبدعًا يعكس موفور علمه فى اللغة، فتجد عنده اللفظة النادرة والشاردة والغريبة، وهو أمر يحسب له لا عليه، لأنه يعنى أن الرجل صادق فيما يبدع، عفوى فى ما ينشد، والمناخ العلمى السائد حوله يسمع ما يقول، ويفهم ما يسمع، ويقدر ما يفهم، وغاية ما يبتغيه الفنان أن تبلغ تجربته غايتها.

وهو عربى قح فى أفكاره ومشاعره، تحركه النخوة العربية، ويتحرك فى نطاق تقاليدها حياة وسلوكًا، وفى نطاق العروبة هو أزدى قحطانى، وقصائده فى الفخر والحماسة سجل حافل بأسماء الرؤساء من قومه، من سبأ وحمير، ونلتقى بأسماء جعفر الوهاب، وهو ابن الجلندى ملك عمان فى عهد النبى ﷺ، والحارث العمانى، وعياد بن عمرو بن الحليس، والصلت بن مالك، ونصر بن المنهال العتكى، وسويد بن سراة، وسعيد بن منهال، وراشد بن النضر الفجحى، وفهم بن وارث، وموسى بن موسى، وهناء بن مالك، والأهيف بن خمخام، وسليمان بن عبد الملك السليمى، وعزان بن الخروصى، وشمس بن عمر بن غانم، ونصر بن زهران، وآخرين كثيرين.

هذا إلى جانب أسماء القبائل والبطون والأحياء: كندة، والقروط، وربيع، والعمور، والعتيك، واللبو، وبنى مالك بن فهم، ومعن، وبنى سلمة، والجراميز والعقاة، وحمام، والفراهيد، وآل دهمان، وآل سيد، وصليمى، وبنى جهضم، وبنى شريك بن مالك، وبنى قسمل، وبنى جديد، وبنى حاضر، وبنى السامة، وقبائل أخرى.

وأسماء الأمكنة والبقاع لا تقل كثرة، فهناك الروضة، ودامث، والرس، وعمان، والقناعث، واللوى، ومأرب، ومادث، وماعر، والمباعث، والقاع، والخرجين، وحتى، ودامث، وخت، والملا، وأمكنة غيرها كثيرة.

وكلها تجعل من ديوان شعره وثيقة تاريخية وجغرافية عظيمة الأهمية، إلى جانب قيمته اللغوية والفنية، ولقد كان السيد محمد بدر الدين العلوى رائدًا فى جمع أشعار ابن دريد، وبذل جهدًا مشكورًا فى ضبط هذه الأشعار وتصويبها، بقدر ما تسمح به جهود فرد، ثم جاء الباحث التونسى عمر بن سالم فتقدم بالديوان فى مجال الدقة خطوات أكثر، فأضاف إليه قليلاً، وضبط الأبيات ضبطًا كاملاً، ووثق القصائد والمقطوعات توثيقًا جيدًا، بقدر ما سمحت له الظروف،

وأفاد من المخطوطات الموجودة فى دار الكتب التونسية فائدة كبيرة، ورغم ذلك كله، اعتقد أن الديوان فى حاجة إلى جهد أزيد، يقوم على متابعة كتب التراث جميعها، والمخطوط منها بخاصة، ومتابعة ما قد يكون فيها لابن دريد جملة، لمعاونة القارئ غير المتخصص على فهمه دون عناء.

ووددت أن لو كانت لى وقفة عند وسائله الفنية فى التصوير البلاغى لكل ما رأى وتناول، ولكنى أرى الرحلة طالت، وموعدى بها دراسة أخرى.

أ.د. الطاهر أحمد مكى
أستاذ الأدب العربى
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة